



سلسلة تصدر عن جمعية الثقافة والفنون وتتناول موضوعات ثقافية متنوعة | ١٥

رحلتي مع العقيلات

ابراهيم المسلم


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رحلتي مع العقيلات

تأليف
ابراهيم المسلم

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

صدر عن الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون


بسم الله الرحمن الرحيم



المحتويات

الإهداء

إلى الذي خرج من الجامعة بعد سنوات من الصبر والكفاح. خرج إلى الحياة حاملاً سلاحاً من المعرفة والتحصيل يواجه بها مستقبله.

وليست الشهادة التي يحملها هى المفتاح السحري فإن دروب الحياة صعبة وتحتاج إلى صبر واناة ووصيتنا إليه أن يكون مواطناً صالحاً يجند نفسه في خدمة دينه ووطنه حنوا على الصغير رحيماً بالكبير.

إلى ابني أهدي هذا الكتاب،

إبراهيم المسلم

مقدمة

لم أكن أنوي ــ حين فرغت من تأليف كتاب عن العقيلات: رحلاتهم وتنقلاتهم أدلاء على قوافل التجارة متعهدين لنقل الحجاج تجاراً للابل والخيول أن أعيد الكرة في كتابة مثل هذه السيرة التي استغرقت مني جهداً كبيراً، في البحث عن المادة لأكثر من خمس سنوات.

بيد انى ــ وبعد أن فرغت من كتاب العقيلات ــ ألح على الكثير من الأصدقاء خاصة أبناء العقيلات بأن أكتب رحلتي معهم باعتبارها حدثاً يصور الواقع تفاصيل دقيقة وحية بصفتي أحد أبناء العقيلات الذي كان له حظ مرافقة قوافلهم في آخر رحلاتهم.

عاصرت الكثير من شيبهم وشبابهم، عرفت عاداتهم وتقاليدهم في مجالسهم وسفراتهم، في بيعهم وشرائهم، وعندما بدأت في الكتابة وقفت في حيرة، هل تكون الرحلة على نسق كتب الرحالة العرب، تسجيل الأحداث يوماً بيوم، وتسجيل أسماء المدن والقرى والموارد أو أتخذ لها أسلوباً يجمع بين القديم والحديث، فأذكر أسماء المدن والقرى والموارد، بداية من القصيم إلى الشام ومصر والعراق؟

ووقفت أمام أمرين : الأول : من الجائز أن تكون هذه المدن أو القرى، أو الموارد غير معروفة لهذا الجيل. الأمر الثاني قد تكون هذه المدن أو القرى أو الموارد لها أصول وجذور تاريخية

لكنها مع مرور الزمن قد اكتسبت مسميات حديثة وأكون بذلك قد أضفت جديداً يستفيد منه القارىء الكريم.

وقد وجدت أنه من المناسب أن أجمع بين القديم والحديث مع فكرة بسيطة عن الأسس التاريخية وتفصيلات حديثة لهذه الأماكن.

وإن كان هذا الاختيار سيتطلب مني الجهد في البحث عن المصادر التاريخية لكن ما حيلتي أمام هذه المسئولية التي تفرضها أمانة البحث.

وهاأنذا وبعد جهد كبير أفرغ من هذه الرحلة التي أعادت إلي ذكريات الصَباء والشباب أقدمها مع رجائي إلى كل صاحب كلمة أن يتحمل ما كتبته.

وحسبي أنني ساهمت بقدر متواضع في هذه الرحلة التي تناولت فيها جانباً غير معروف عن حياة فئة من أبناء نجد كان لهم السبق في الانفتاح على عالمنا العربي الواسع.

وأملي أن تلقى قبولا لدى القارىء الكريم

والله ولي التوفيق

إبراهيم المسلم

شعبان ١٤٠٤هـ



الفصل الأول

نجد

يقول ياقوت(١) كل ماارتفع عن تهامة فهو نجد، وقال الأصمعي: «سمعت الأعراب تقول إذا خلفت عجلزا مصعدا فقد أنجدت وعجلز فوق القريتين، قال وماارتفع عن بطن الرمة، والرمة وادى معلوم فهو نجد إلى ثنايا فرات عرق، وقيل نجد هو اسم للأرض العريضة التي أعلاها تهامة واليمن وأسفلها العراق والشام. يقول أعرابي:

اكرر طرفي نحو نجد فإنني
إليه وان لم يدرك الطرف أنظر

حنينا إلى أرض كأن ترابها
اذا مطرت عود ومسك وعنبر

بلاد كأن الاقحوان بروضته
ونور الاقاحي وشي برد محبر

أحن إلى أرض الحجاز وحاجتي
خيام بنجد دونها الطرف يقصر

وما نظرى من نحو نجد بنافعي
أجل لا ولكني إلى ذاك أنظر

أفي كل يوم نظرة ثم عبرة
لعينك مجرى مائها يتحدر

(١) معجم البلدان لياقوت، جـ ٥ ص ٢٦٣ ــ ٢٦٥.

متى يستريح القلب اما مجاور
بحرب واما نازح يتذكر

وقال آخر :

خليلي هل بالشام عين حزينة
فتبكي على نجد لعلى أعينها

وهل بائع نفساً بنفس أو الأسى
اليها فأجلاها بذاك حنينها

وقال آخر :

رأيت بروقا داعيات إلى الهوى
فبشَّرت نفسي أن نجدا أشيمها

اذا ذكر الأوطان عندى ذكرته
وبشرت نفسي أن نجدا أقيمها

ألا حبذا نجد ومجرى جنوبه
اذا طاب من برد العشى نسيمها

وقال نوح بن جرير الخطفى :

الا قد أرى أن المنايا تصيبني
فمالي عنهن انصراف ولابد

اله العرش لاتجعل ببغداد ميتتي
ولكن بنجد حبذا بلدا نجد

أدخل على عبد الملك بن مروان عشرة قد حكم عليهم بالموت فأمر بضرب رقابهم وكان يوم غيم ورعد وبرق فضربت أعناق تسعة منهم، وقدم العاشر ليضرب عنقه فبرقت برقة فأنشأ يقول:

تألق البرق نجديا فقلت له
يا أيها البرق اني عنك مشغول

بذلة العقل حيران بمعتكف
في كفه كحباب الماء مسلول

فقال له عبد الملك ما أحسبك إلا وقد حننت إلى وطنك وأهلك وقد كنت عاشقاً، قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: لو سبق شعرك قتل أصحابك لوهبناهم لك. خلو سبيله.

ونجد عندي مكان القلب، ومهما قلت فإن محبتها راسخة في النفس رسوخ جبال العارض وجبال طي ورمال القصيم.

ولكنني أستعير أشعاراً من الماضي عن نجد وطيب مقامها، فلقد كانت أوديتها وشعابها وجبالها ورمالها مسرحاً انتصر عليه الحق.

نبذة تاريخية

قبل أن أشرع في بداية الرحلة، سوف أعطي القارىء الكريم نبذة تاريخية، عن المدن والقرى وموارد المياه التي مررنا بها، وأقمنا فيها، وأسماء تلك المدن والقرى، أو الموارد في المعاجم.

مدينة بريدة : (١)

تصغير بردة، قرية كبيرة من أعمال القصيم بنجد، تقع على خط عرض ١٧/٢٦ شمالاً، وخط طول ٥٥/٤٣ شرقاً، وموقعها على الضفة الشمالية لوادي الرمة.

ويذكر ياقوت أن بريدة ماء لبني خبينة من قبيلة عبس، ويسلم الجغرافيان الخانجي وابن بليهد بهذه التسمية باعتبارها الأصل في اسم المدينة الحالية.

ويقال ان المدينة الحالية أنشأها بنو تميم منذ ثلاثة أو أربعة قرون وقد قرر المستشرق بالكريف عدد سكانها عندما زارها عام ١٨٦٢م، بـ ٢٥٠٠٠، نسمة، إذا أضفنا إليها سكان القرى المحيطة بها.

وبريدة هى عاصمة إقليم القصيم، وتقوم المدينة على المهاد الرسوبية المتناثرة في كثبان نفود بريدة، وحولها حدائق وقرى، تعرف باسم الجنوب، وقد تكونت هذه البقاع الخصبة نتيجة لفيضان وادي الرمة، واستمرت هذه البقاع تستمد منه موردها من المياه الوفيرة.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٧ ص ١٨٦ منشورات دار الشعب بالقاهرة.

وكـان في مدينة بريدة أيام زيارة المستشرق بالكريف سوق مزدحمة بالسلع، وقد شيدت بيوت المدينة من اللبن والحجارة، وشوراع المدينة فسيحة، ومنظمة وحولها سور سمكه قدمان تحيط به البساتين، وتمتد الأراضي المزروعة والنخيل حول المدينة. ويستدل المستشرق بالكريف من ارتفاع مئذنة مسجدها الكبير على أنه شيد منذ قرنين، كما يذهب إلى أن القلعة في بعض أجزائها أقدم من هذا التاريخ، لأن بعض حوائطها قد شيدت بالحجارة.

وارتفاع المدينة عن مدرج المطار الحالي شرقي مدينة بريدة حوالي ٦١٠ أمتار، وتقوم إلى الشمال والغرب من المدينة مزارع ممتازة، مما جعل المدينة في يوم من الأيام سوقاً مشهوراً للجياد والابل والماشية، والمحصولات الزراعية.

وكان لمركز بريدة المتوسط على الطريق بين البصرة والمدينة، من أهم عوامل النهوض بها حتى أصبحت من أعظم المراكز التجارية في جزيرة العرب.

وتؤكد الروايات المحلية، والرحالة الغربيون بأن القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) هو التاريخ المحتمل لانشاء المدينة، ويميل كاسيل ــ وهو أحد الرحالة ــ إلى أن تاريخ المدينة هو ٩٥٠هـ/١٥٤٣ ــ ١٥٤٤م، ومهما يكن من شيء فان المدينة ذكرت باعتبارها قوة سياسية بمعرفة عثمان بن بشر أحد مؤرخي الجزيرة العربية.

أما أهلها فهم خليط من القبائل العربية من عنزة ــ حرب ــ مطير ــ عتيبة ــ بني تميم، وهم أهل تجارة ومرافق، وقد اشتهر رجال من بريدة أسموا أنفسهم (عقيل) كتجار للماشية ورجال قوافل.

وهناك احتمال آخر أن يكون إنشاء المدينة في نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وعلى اعتبار أنها كانت سوقاً مشهورة للتجارة حيث أنه خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين(١)، ونتيجة لأخلاق القبائل التي استوطنت هذه الموارد ـ برزت أهمية تعمير المدن، ومن الطبيعي أن تظهر زعامات داخل مناطق نجد قاموا بتعمير المدن فيها، وعرفت بأسماء أصحابها، مثل الدرعية ـ العيينة ـ الجمعة ـ الفاط ـ بريدة ـ عنيزة ـ الرس ـ عيون الجواد، وغيرها من المدن.

وقد عقدت أحلاف بين أهل القصيم(٢) وقبيلة عنزة وقبائل شمر، وحرب ومطير أدت هذه الأحلاف إلى نوع من الاستقرار يسرت سبل التجارة والقوافل، وقام بعض رؤساء هذه القبائل بممارسة دلالة قوافل التجارة وقوافل الحجاج، وأنشأوا المدن وحفروا الآبار، ومهدوا الطرق، وازدهرت مع هذه التبدلات تجارة المواشي من الابل والخيول.

وعندما توحدت المملكة العربية السعودية على يد المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود أصبحت مدينة بريدة هى همزة الوصل في تجارة الجزيرة العربية بين الخليج العربي والبحر الأحمر، وازدهرت تجارة الخيول والابل والماشية إلى أسواق العراق والشام ومصر، يقوم بها تجار من أهل بريدة عرفوا باسم (العقيلات) وهو مانسجله في هذه الرحلة.

---

(١) كتاب العقيلات للمؤلف ص ١٦.

(٢) نفس المصدر ص ٣٣.

يقول الشاعر محمد العوني ــ رحمه الله ــ :

أبـكـي عـلـى دار ربـينـا بجـالها
معـلومـهـا خشـم الـرعـن من شماها

ومن شـرقـهـا طعسين الاراخم تحدها
بين اللـواء والسر مـا أطـيـب سـهـاها

دار بـنـجـد جـنـة كـان قـبـل ذا
مــن صـكـتـه غبر اللـيـالـي عـنـاهـا

قال أعرابي :

يـقـر بعـيـنـي أن أرى رمـلـة الغضــا
اذا ظـهـرت يـومـا لـعـيـنـي تـلاهـا

وقال مالك بن الريب :

ألا لـيـت شـعـرى هـل أبـيتن لـيـلـة
بجـنـب الغضــا أزجـى القلاص النواجيا

فـليت الغضــالم يقطع الركب عرضه
ولـيـت الغضــا ماشى الركاب لياليا

ولـيـت الـغـضـا يوم ارتحلنا تقاصرت
بـطـول الغضــا حتى أرى من ورائيا

لـقـد كـان فـي أهـل الغضا لودنا الغضــا
مـزار ولـكـن الـغـضـا لـيـس وانـيـا

البداية

كنت قد ختمت القرآن الكريم، وتعلمت مبادىء الخط العربي والحساب، في (كتاب) الشيخ محمد صالح الوهيبي وعمري آنذاك قد تجاوز الثانية عشرة.

وكان والدي ـــ رحمه الله ـــ موجودا في مدينة بريدة يشتري الابل تمهيداً لسفره إلى الشام فاشترى رعيتين من الابل وتركهما ترعى في المراعي القريبة شرقي القصيم.

وكانت الحكومة السعودية قد بدأت في ارسال بعثاتها التعليمية للخارج لتلقي العلم في عام ١٣٦٣هـ، وأنشأت في جدة مدرسة سميت «مدرسة تحضير البعثات»، إذا جاوز الشاب فيها مرحلة من التعليم ابتعث إلى الخارج لتكملة دراساته العليا.

وقررت الحكومة اختيار عدد من أبناء كل منطقة للسفر إلى هذه المدرسة وأرسلت لجاناً لاختيار من ترى فيه استعداداً فطرياً لتلقي العلوم.

وكانت الحكومة بنواياها الحسنة تريد أن تسابق الزمن، فالجهل مطبق، والبلاد بحاجة إلى تنمية شاملة وهى مدركة أن التنمية لاتقوم إلا على أكتاف وجهود أبناء البلاد وكانت الحرب العالمية على أشدها.

كان الآباء جزعين خائفين على أبنائهم من أن يكونوا طعماً للحرب، فهم يخشون على أبنائهم أن يكونوا ذاهبين إلى الحرب

واعتبروا أن من ذهب من هؤلاء الشباب فلن يعود.. هكذا خيل إليهم.

وكـان الآباء في خوفهم معذورين، لقد جاءت هذه البعثات في وقت كانت رحى الحرب العالمية الثانية دائرة، حتى أن كثيراً من الطلاب قد هربه أهله من بلد إلى آخر، والبعض حاول القفز من السيارة التي تقلهم إلى الحجاز.

واتضح مع الأيام أن من ذهب إلى الدراسة قد عاد ومعه شهادة علمية، أهلته إلى أن يتبوأ المناصب العلمية في كافة مناطق التعليم، ولم يكن جزع أو خوف الآباء له مايبرره، وكان لي زملاء وأصدقاء كثيرون منهم في قيادات التربية والتعليم.

تلك بداية أردت تسجيلها.

قلت إن الوالد لايزال في بريدة والحرب العالمية الثانية على أشدها، فاحتلت ألمانيا النمسا وبلجيكا وفرنسا، وجاء الدور على بريطانيا.

وقبل ذلك اتجهت الجيوش الألمانية إلى الشرق مخترقة ايطاليا، وعبرت البحر الأبيض المتوسط إلى ليبيا، وكنت أرافق الوالد ــ رحمه الله ــ إلى حيث يلتقي مع أصحابه ورفاق عمره: سليمان الناصر الوشمي ــ إبراهيم المحمد العويد ــ عبد الله الصالح الصقعوب، وكانوا يسهرون كل ليلة في بيت سالم إبراهيم الدبيب، إلى جوار الراديو الوحيد في مدينة بريدة، يستمعون إلى أخبار الحرب العالمية الثانية وتطورات القتال بين مختلف الجيوش.

ولقد سمعت إذاعة الشرق الأدنى، وإذاعة ألمانيا، تذيعان أخبار الحرب، ووصول الجيش الألماني إلى العلمين على ساحل

البحر الأبيض المتوسط، التي تبعد عن الاسكندرية ــ في مصر ــ مسافة مائة وعشرون كيلو مترا تقريباً، حيث دارت معركة طاحنة وحاسمة في هذه المنطقة بين جيوش الحلفاء وألمانيا، بين قائدين ملأا أسماع الدنيا بأخبارهما: روميل القائد الألماني، مونتوغمري القائد البريطاني، كنت أسمع حواراً يدور في الجلسة عن شجاعة هذين القائدين، وكانت الغلبة في النهاية للقائد البريطاني الذي لقب بثعلب الصحراء، هكذا سمعت من إذاعة الشرق الأدنى ولازلت أذكر اسم المذيع يومئذ (راجي صهيون).

وفي إحدى الليالي من شهر صفر ١٢٦٤هـ/١٩٤٥م علمت أن جلالة الملك فاروق ملك مصر، قد قام بزيارة إلى المملكة العربية السعودية، ولم يكن يعلم ذلك الخبر إلا القلة القليلة من الناس لعدة أسباب: أهمها: أنه لا توجد وسيلة للاستماع ولا صحف تصل إلى المنطقة يقرأها الناس، واجتمع في هذه الزيارة مع جلالة الملك عبد العزيز رحمه الله.

وفي إحدى ليالي شهر ربيع الثاني من عام ١٣٦٤هـ كنا في بيت سالم الدبيب عندما سمعت إذاعة ألمانيا تذيع نبأ إعلان الحكومة السعودية الحرب على دول المحور: ألمانيا واليابان وايطاليا، والمذيع هو يونس بحرى الذي علق على هذا الاعلان بقوله: ماذا يقصد الملك عبد العزيز بن سعود من إعلانه الحرب على ألمانيا، هل لديه قوة يحارب فيها أساطيل ألمانيا، وإذا كان قد وضع الحرمين الشريفين مدينتين مفتوحتين، هل يريد ألمانيا أن تحارب خراب الدرعية؟

مكونات الرحلة

كانت أسعار المواد الغذائية قد ارتفعت أبان الحرب العالمية الثانية ارتفاعاً كبيراً، فارتفعت أسعار القهوة والهيل والسكر والشاي في مناطق أخرى من المملكة خاصة تلك المدن القريبة من الحدود السعودية الأردنية العراقية مثل الجوف والقريات. وقد وصلت تلغرافات إلى التجار في بريدة من تجار هذه المدن بارسال القهوة والهيل والشاي والسكر، لارتفاع الثمن وتوافرها في القصيم.

عند ذلك قرر الوالد والعويسي شراء هذه المواد، والسفر بها إلى الجوف في طريق رحلتهم إلى الشام. وكانت الحكومة السعودية تشدد على خروج مثل هذه المواد من مناطق إلى أخرى مالم يضمن بيعها داخل المملكة، والسفر بهذه المواد يتطلب موافقة امير القصيم يومئذ ــ عبد الله الفيصل آل فرحان ــ مقابل تعهد من التاجر يكتبه على نفسه بأن يبيع هذه المواد داخل الحدود السعودية مقابل خطاب من أمير المنطقة التي ستباع فيها هذه المواد.

واتفق على تجهيز شراء المواد : السكر والشاي وبعض الأقمشة تخص محمد العويسي، وتحملها ثمانية جمال، القهوة والهيل بنفس القدر تخص الوالد.

كان الوالد ــ رحمه الله ــ قد اشترى قبل فترة رعيتين من الإبل، واشترى محمد العويسي رعية من الابل من أسواق بريدة،

وتركوها ترعى في الصريف شرقي مدينة بريدة، وحددا موعداً للرحلة في أول شهر جماد الثاني ١٣٦٤هـ. وسافرت في أول رحلة لي مع الوالد والعويسي إلى الصريف للاطمئنان على الابل والاتفاق مع الرعيان على موعد اللقاء على أحد الأمواه القريبة من الطريق الذي سيسلكونه في طريقهم إلى الجوف، واختيرت الجمال التي ستحمل البضائع وجمال أخرى للثاية والمطايا التي سيستقلها التجار والخويا والمرافقون، وكلف أحد الرعيان باحضارها إلى بريدة يوم ٩ من شهر جماد الثاني ١٣٦٤هـ، وحدد موعد للرعايا على (عين عيسى الرميح) في قصيبا يوم ١٢ من نفس الشهر، وتحدد سفر القافلة من بريدة يوم ١٠ من الشهر، واختيار هذا التوقيت من الشهر له أسبابه التي عرفتها فيما بعد.

كان العقيلات يحددون سفرهم في شهور الصيف، ويختارون بداية الشهر القمري حتى تتمكن القافلة من السير بالليل اتقاء لحرارة الشمس بالنهار.

وهكذا تكونت القافلة من شراع الوالد يتبعه من الرعيان والخويا والمرافقين شراع محمد العويسي وما يتبعه في رحلته هذه.

وتفسير معنى الشراع كأن يقال : سافر فلان ومعه مائة شراع وهو اصطلاح عرفه العقيلات في رحلاتهم، وشراع الوالد يتكون منه ومني ومحمد أبو يوسف من أهل العيون (أشكى) كلمة أعتقد أنها عراقية تعني أنه مسئول عن جميع متطلبات القافلة من مواد غذائية، وبالتالي مسئول عن الطباخين الموجودين في الشراع، فمثلا كان عبد العزيز الشقيرات (قهوجي) مسؤولاً عن متطلبات القهوة والشاي والماء والحطب. فلاح بن وطيان راع مسئول عن

رعية الابل. خلف بن حمدان (ملحاق) يسير خلف الابل أثناء سيرها وتجميع ماشرد عنها في المرعى، عبيد بن لافي مسئول عن الرعية الثانية، ومعه ملحاق عايد بن مليح والرعية تتكون من ٨١ رأساً من الابل، والعدد الفردي هى (القعدة) التي تسير في مقدمة الرعية، و يركب عليها الراعي. الملحاق له أيضاً راحلة يحمل على ظهرها زاد رحلته هو والراعي و يسير خلف الرعية، والقعدة تتميز بلون من ألوان الابل كأن يقال قعدتها (ملحا) أو شقحاء ويختار من الابل أحد الجمال المدربة يخصص لعملية الابل في الموارد.

شراع محمد العويسي يتكون منه، ومن عبد الله الحربي مرافق، وحمد الشبعان، مسئول عن الثاية، وسليمان الزايدي قهوجي، وعبيد بن خليف راعي، مشعل بن ضويحي ملحاق، وقد يرافق الرحلة أحد العقيلات ممن لايكون له صفة التاجر، ولا الأجير وإنما هو مرافق رحلة معزز مكرم حتى يصل إلى مقصده.

وتتكون القافلة من ذلول للوالد عليها خرجه ومتطلباته من الملابس والفراش وغيره، وذلول لي وعليها بعض من أمتعة الرحلة وخرج فيه ملابسي، وجملين آخرين تحمل أمتعة الخويا والمرافقين، ومتطلبات الرحلة من زاد وقرب للماء، والشراع، وثمانية من الابل تحمل القهوة والهيل للاتجار، ذلول محمد العويسي، وذلول لعبد الله الحربي، وأربعة جمال تحمل الثاية، ومعدات الرحلة وثمانية من الابل تحمل السكر والشاي وبعض الأقمشة للاتجار، فيكون مجموع جمال القافلة ستة وعشرون رأساً من الابل، ورعيتين لنا ٩١ رأسا من الابل مع الراعي فلاح بن وطيان، و٨١ رأساً من الابل مع الراعي عبيد بن لافي يكون المجموع ١٧٢ ورعية للعويسي ٨١ رأساً من الابل.. هذه هى مكونات رحلتنا.

بداية الرحلة

خرجنا من مدينة بريدة فجر يوم العاشر من شهر جماد الثاني عام ١٣٦٤هـ ١٩٤٥م كنت في وداع والدتي وجدتي، كان أخوتي أيضاً في وداعي، وهو فراق لايحس به شاب في مقتبل عمره، كان فرحا بركوب الذلول قاصدا رحلة وراء المجهول.

كان وداعاً حاراً من أهل البيت، لكن فرحتي وسعادتي بهذه الرحلة أنستني ألم الفراق ودموعهم التي سالت وهم يودعونني ربما فراق لا لقاء بعده، فهذه سنة الحياة. قفزت إلى ظهر الراحلة أمام نظرات اخوتي وهم صغار في عزة وكبرياء، نهضت بي الراحلة أمام بيتنا، وسارت القافلة تتهادى، وكان الوالد رحمه الله ومحمد العويسي ــ جارنا في المنزل ورفيق الرحلة ــ في المقدمة تتبعهما القافلة في نظام.

ويوم خرجنا من مدينة بريدة كانت المدينة لازالت تحتفظ بأسوارها وبوابات للخروج والدخول تفتح وتقفل وفق مواعيد معينة، خرجنا من الباب الشمالي للمدينة ومكانه الآن قبل شارع الوحدة الذي يلتقي بشارع الصناعة بحوالي خمسة أو ستة بيوت، أرض فضاء ورمال نفود الشماس، ونفود بريدة، وتشاهد على البعد (المرقب) وحوله جفر الحمد المعروفة والتي أصبحت الآن مقراً لمعهد التدريب المهني ومبنى لإدارة بلدية بريدة.

كانت بريدة ــ كما قلنا ــ تحتفظ بأسوارها وأبوابها، وقصر الامارة مبنى كبير يقع في الشرق من المدينة وحوله باب صغير

بجوار سور القصر، يدخل منه القاصد إليه وبنى مايشبه الكراسي (مصاطب) من باب القصر إلى الباب الصغير يفرش عليها السجاد ويجلس إليها الضيوف والأمير في الوسط فيرى الجالس في الجرده (السوق الكبير) في بريدة وحوله الخويا والضيوف.

باب كبير حول القصر يدخل منه العامة من الناس، ثم ينعرج سور المدينة من هذا الباب إلى الشرق حتى الباب الكبير الثاني ويسمى الباب الشرقي وموقعه حول بيت فهد الشريدة ثم يستمر السور إلى الجنوب حتى يصل إلى شارع السويد، وكان هناك بئر للماء يشرب منه الناس ثم يستمر وينعطف إلى الغرب حيث يوجد الباب الجنوبي الشرقي وهو مايوازي الشارع المسمى الآن شارع الملك عبد العزيز حيث مسجد (الحميدي) الشيخ محمد الصالح المطوع.

ثم يستمر السور إلى الغرب حيث الباب الجنوبي الغربي الذي يخرج منه الناس إلى مقابر فلاجه والصباخ وماحوله ثم ينحرف السور إلى الشمال حيث يوجد باب يسمى باب الشقيري – يخرج منه ويدخل إلى المدينة أهل الخيوب الواقعة غرب مدينة بريدة.

وهناك برج يسمى برج (الصنقر) يرتفع غربي المدينة ثم تستمر السور حتى الباب الغربي ويسمى باب العجيبه وهكذا ينحرف إلى الباب الشمالي السابق ذكره. هذه هي أسوار المدينة في ذلك الوقت.

وإذا نظرنا إلى خارج المدينة من الشرق نجد المقابر التي يفصل بينها وبين المدينة وادٍ وهو شارع الخبب الآن، حيث كانت السيول من الودي تصب فيه حتى يصل إلى السادة نخيل ومزارع وقيل انه يستمر حتى يصب في وادي الرمة.

وإلى الشرق من المقابر يقع النفود الشرقي وفيه (أثول) ــ جمع أثل ــ أشجار كبيرة كان يقال لها أثال (الجرب) وهي الإبل التي يصيبها الجرب تربط في هذا المكان حتى لا تنقل العدوى إلى غيرها من الإبل، وموقعها الآن إدارة التعليم والمعاهد والمدارس التي حولها.

وعندما أقام أمير القصيم سابقاً : عبد الله بن مساعد عام ١٣٧٨هـ قصر الإمارة أنشىء شارع في وسط النفود الشرقي يبتدىء موقعه من ادارة التعليم ــ مستشفى بريدة المركزي الذي أنشىء عام ١٣٧٦هـ أصبح هذا الشارع يعرف بشارع الامارة.

ومن الجنوب لم يكن خارج أسوار المدينة سوى (مصلى العيد) أما الشمال حيث تقع الصفراء وجفر الجمد حيث تستقبل هذه الجفر مياه الأمطار وتختزنها، وإذا أقبلت من الأودية تخرج إلى مجرى الجيب.

ولم تكن المياه العذبة متوفرة في مدينة بريدة حتى عام ١٣٧٤هـ كانت تشرب من الآبار مثل الصقعا وحسو السويد والغوطه نخل المشيقح والصبيحية حتى حفر بئر الغريزية في مدينة بريدة، وتم توزيع المياه إلى بيوت المدينة.

من المنزل سلكنا طريقاً فرعياً حتى دخلنا إلى شارع الباب الشمالي، هكذا كان يسمى في ذلك الوقت.

أما الآن فاسمه شارع الصاغة، حيث جمعت القافلة حول بئر العبيري المرحوم فهد العلى العبيري، وأوقفه ليسقى منه السابلة وأصحاب القوافل وموقعه في السابق ناصية شارعي الوحدة ــ الصناعة الآن.

وقام عبد الله الحربي، وعبد العزيز الشقيران بسقي الابل وتعبئة قرب الماء للشرب، وبعد أن تزودت القافلة بالماء وتم سقيا الابل، تحركنا في حوالي الساعة السادسة صباحاً تاركين مدينة بريدة وراء ظهورنا، وكنت على ظهر راحلتي التفت يميناً ويساراً، ألقي النظرة الأخيرة على أسوار المدينة وهى تبتعد عني شيئاً فشيئاً.

وسرنا باتجاه الشمال حيث جفر الحمد وهى يومئذ يأخذ الناس منها الطين لتعمير بيوتهم، وفي غربيها يقوم (المرقب) بناء مرتفع يشبه إلى حد كبير مئذنة أقيم هذا البناء في زمن الحروب كي يكون نقطة مراقبة يقيم فيه عدد من المحاربين يتولون حراسة المدينة وتنبيه السكان بقرب الغزو.

والمرقب والأبراج والحصون(١) اقتبسها خلفاء الدولة الأموية، وأقاموها على الحدود البيزنطية ثم أصبح وجودها من الضروريات التي لاغنى عنها في نظام المباني المدنية والدينية بفضل ماتضفيه على مظهر تلك المباني من بهاء، وكانت أيضاً تستعمل خارج المدن كأبراج للمراقبة (أي لأغراض عسكرية) واستمر هذا التقليد مرعياً بعد ذلك في الأربطة والخانات، وتزودنا عمائر نهاية القرن الثاني الهجري (أوائل التاسع الميلادي) بمثال رائع منها قصر الاخيضر بالعراق، بأبراجه النصف دائرية وبأعلى كل برج منها غرفة صغيرة لقذف اللهب على المغيرين.

وهكذا تقابلنا الأبراج الأثرية التقليدية مرة أخرى في التحصينات العربية في القرون الوسطى على أيام امارة الأيوبيين

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٧ ص ٣ ــ ٤.

وقلاع القاهرة وبصرى ودمشق وحلب وغيرها من المدن العربية(١).

وقد شاهدت هذا البرج المعروف (المرقب) شمالي مدينة بريدة عندما كنت صبياً ألهو مع أقراني حوله وفي داخله شاهدت ارتفاعه الذي يزيد عن عشرين متراً مثلث الأضلاع وبه بعض الغرف والمطلات (الكواتيل) إلى الخارج وهو منفذ يطل منه الحراس لمعرفة القادم دون أن يراهم ومزود بفتحات لفوهات البنادق.

اتجهت القافلة إلى حيث نفود الشماس صعوداً على رماله المرتفعة وفي قمة النفود تطلعت من خلفي إلى منظر المدينة من بعيد كان المرقب شاهقاً، وأسوار المدينة تلوح من البعد.. ليتني كنت يومها أحمل آلة تصوير فوتوغرافية لأسجل هذا المنظر الفريد، بلوحة جميلة أحتفظ بها وبمعالم المدينة وأسوارها نخيل الشماس، نخيل النفيره، الغاف والوديان والسهول. هذه المعالم التي جرفتها المدنية، وحرمتنا حتى من البقية الباقية من الآثار والمعالم مثل قصر بريدة القديم والمرقب والصنقر، وغيره الذي اندرست معالمه دون أن تراه هذه الأجيال.

وإذا كان نفود الشماس هو المطلع والطريق الوحيد للعقيلات في سفراتهم فإنه أي النفود قد أصبح في عصرنا

---

(١) ففي خلال العصور الوسطى تعرض العالم الإسلامي لأخطار خارجية تمثلت في الغزو الصليبي لبلاد الشام في نهاية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) والغزو المغولي للعالم العربي والإسلامي في منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) مما دفع حكام العالم الإسلامي إلى إنشاء المزيد من الاستحكامات والأبراج والحصون.

الحاضر طريقاً معبداً تستعمله السيارات المتجهة إلى الصبيحة وبعض (الخبوب) القريبة منه، ويلتقي بطريق المدينة الرئيسي الذي يعتبر أكبر شوارع لمدينة بريدة، وهو الطريق الرئيسي المؤدي إلى المدينة المنورة، ويتفرع منه طرق للشقة السفلى والشقة العليا وآثال وعيون الجواد ـ مطار ـ القصيم ـ القرعاء وغيرها من القرى والمدن المجاورة.

نزلت القافلة إلى حيث بلدة الصبيحة وهى شمالي الغاف وإلى يسارنا تقع كثبان الرمال المرتفعة: نفود الشماس ـ نفود الغاف، وإلى اليمين الصفراء وهى جبال صغيرة، وشيدت أروقة المساجد والمباني والأعمدة من حجارة هذه الجبال، وكذلك أسست أكثر بيوت المدينة من هذه الحجارة.

وكان أشهر من يعملون على قطع الأحجار من الصفراء عائلة القاسم وعائلة الفريحي في ذلك الوقت.

والطريق الذي سلكناه عند نزولنا من نفود الشماس يقع مابين كثبان الرمال إلى اليسار والصفراء إلى اليمين وعلى البعد لاحت لنا الشقة السفلى، وهى صحراء خالية إلا من روائح النباتات التي تكثر في هذا المنخفض حيث تنزل الأمطار من الصفراء والودي مكونة تجريفات من الطينة المختلطة بالرمال وتكثر فيها النباتات التي تلتهمها الابل وهى تسير.

وهذه المنطقة هى المعروفة الآن (حي المنتزه) وطريقنا الذي نسلكه يخترق طريق المدينة باتجاه موقع معارض السيارات الآن وهو أيضاً الطريق المعبد الذي يترك صوامع الغلال إلى اليسار حيث المنخفض الذي تتجمع فيه الشقتان السفلى والعليا، والأرض هناك خضراء والعشب مرتفع عن الأرض. وفي إحدى

الرياض مابين الشقتين توقفنا هناك في فترة الراحة وهى مايسمونه (المضحى) حيث تركت الابل ترعى وعليها الأحمال وبدأ الطباخون والقهوجية يعدون طعام الغداء والقهوة.

وتفرقت مجموعة الخويا يجمعون الحطب (والمعازيب) أي التجار فرشوا السجاد وحفروا (الوجار) (حفرة في الأرض جمعوا فيها الحطب وأوقدوا النار) وكنت جالساً مع الوالد عندما نظر إلى قائلاً (رح)(١) شارك الخويا في جمع الحطب.

وكانت هذه هى المرة الأولى التي بدأ الوالد رحمه الله في تدريبي عملياً على الاشتراك مع أفراد المجموعة في جمع الحطب، وأخذ عبد العزيز الشقيران ــ وهو المسئول الأول عن (شراعنا) ــ الفاروع والمسحاة وبدأ في تقطيع الأشجار اليابسة وأنا أجمع مايقطعه بيدي التي لم تتعود بعد على الخشونة، وأثناء جمع الحطب دخلت في أحد أصابعي (شوكة) آلمتني وتوقفت عن العمل في محاولة لإخراجها لكن عبد العزيز الشقيران نظر إلي كمن يقول هذا شيء بسيط، الجاي أكثر من الرايح، فخيل إلي أنه يعاتبني لكنه أخرج من جيبه (منقاشاً) رماه إلي قائلا خذ طلع (الشوكة). وتم جمع الحطب وأوقدت النار، وأخذ الطباخون يجهزون طعام الغداء والقهوجية يعدون القهوة والشاي. وكان الجو صيفا والشمس تميل إلى الحرارة ولم تكن الحاجة تدعو إلى نصب الخيام، فوقت المضحى لايستغرق سوى سويعات قليلة بعدها تواصل القافلة رحلتها.

---

(١) لكي تكون صورة الرحلة التي قمت بتصويرها على هذه الصفحات أقرب إلى الواقع والحقيقة، استخدمت بعض الألفاظ والمصطلحات المعمول بها رغم اختلافها عن لغتنا العربية المكتوبة، والمقروءة، ولكن لكي أقرب للقارىء الواقع بتفاصيله.

وانتهينا من تناول الطعام وشربنا القهوة والشاي، وكان هذا أول طعام أتناوله في رحلتنا، فلم أكن قد خرجت بعد للصحراء كما يفعل أبناء هذا اليوم في رحلات يبدأونها يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع، ويسمونها (الكشنة) حيث يجتمع عدد من الشبان يشتركون في ذبيحة ومواد الطبخ والقهوة والشاي ويخرجون إلى الصحراء في الربيع يصطادون الطيور والأرانب، تلك رحلات عرفتها بعد ذلك. أما هذه الأكلة فهي الأولى بعد خروجنا من مدينة بريدة، ثم أذن الوالد لصلاتي الظهر والعصر قصرا، وأم المصلين محمد العبد الله العويسي، وبعد انتهاء الصلاة حملت جمال الثاية، وبدأنا في المسير.

كان الجو صيفاً والشمس حامية، وكنت أنظر أمامي على مرمى البصر فأجد سحاباً من المياه لكنني كلما حددت مكانه انجلت هذه المياه، فأحاول أن أقول لأقرب واحد مني في الرحلة هو عبد العزيز الشقيران أسأله عن هذا الماء، وخجلت من السؤال أول الأمر، لكنه حب الاستطلاع لدى تغلب على هذا الخجل، وعبد العزيز الشقيران ـ كما قلت ـ أقرب إلى من الوالد رحمه الله، الذي أخاف نظراته، وهو بطبيعته لايحب كثرة الكلام، سألته عن هذه المياه ضحك قائلا (هذا ماهوب ماء!): هذا سراب، أدركت حينئذ قول الله تعالى: في كتابه الكريم: «كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء».

اتخذنا مسيرنا باتجاه الشمال تاركين الشقة العليا على اليمين ونرى على البعد أثال على تسيارنا باتجاه الشمال الغربي.

واثال هذا الموضوع(١) على طريق الحجاج بن الغمير وبستان بن عامر قال عنه كثير:

---

(١) مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع جـ ١ ص ٢٤ ـ ٢٥.

نرى الفجاج اذا الفجاج تشابهت
أعلامها بمهامة أغفال

بركائب من بين كل ثنية
شرح اليدين وبازل شمال

اذا هن في غلس الظلام قوارب
اعداد عين من عيون أثال

غربت شمس يوم ١٠ جماد الثاني ١٣٦٤ هـ ولم نكن قد وصلنا بعد إلي قصيبا، توقفت القافلة وأذن محمد العويسي لصلاة المغرب والعشاء، قصرا وأم المصلين وبدأ في قراءة الفاتحة ثم سورة التين، والعويسي ـ كمعظم أهل الزلفى يقرأون القرآن بلكنة غريبة، يشدد على بعض الآيات القرآنية، فصدرت مني ضحكة أغضبت الوالد، وكنت أصلي إلى جواره، فجذبني من يدى وضربني ضربة خفيفة على يدي فكتمت ماتبقى من ضحكتي.

وبعد أن فرغنا من الصلاة عاتبني بنظراته فقط، ثم سألني عن سبب الضحك فأجبته بأنني تذكرت شيئا أضحكني قال لي (لا تعود له) أي لا تعود لمثل ذلك ولا تضحك في الصلاة أبداً فوعدته بأن لا أعود لمثل ذلك، لكنني بعد قليل ملت على عبد العزيز الشقيران وأفهمته عن سبب ضحكتي وهى لهجة العويسي في قراءة القرآن الكريم.

وفي أثناء السير فهمت من الوالد أننا الآن بشمالي (اللبيد) وهى صحراء كثيرة الأشجار والعشب والابل ترعى فيها أثناء سيرها.

والبطين واللبيد : المواضع التي يستريض فيها ماء السيل.
بطن اللوى(١): ذكره الأصمعي في بلاد أبي بكر بن كلاب فقال لهم : ثم بطن اللوى صدره لهم وأسفله لبني الأضبط وأسفل ذلك لغزارة وهي واد ضخم قال ابن ميادة:

ألا ليت شعرى هل يحلن أهلها
وأهلي روضات ببطن اللوى خضرا

وهما يعدان من أخصب المراعى في ذلك الوقت، أما الآن فهى من أجود وأحسن الأراضي الزراعية المنتجة للقمح والأعلاف وفيها مزارع كثيرة لتربية المواشي من الابل والأغنام، وفيها مزارع للدواجن وأخرى لانتاج الحبوب والغلال.

وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل، ومازالت القافلة تجد فى السير، ولاحت لنا أنوار خفيفة على البعد، فعرفت أنها بلدة قصيبا، وسمعت الوالد يحادث العويسي قائلا: نعدى مجرى العين وننزل إلى الشمال من البركة الكبيرة، فرد العويسي بكلمة (هدا) وهذه الكلمة جديدة على، وعرفت معناها أنه لابأس بالتوفيق والهدى.

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ١ ص ٤٤٩.

المورد الأول

في المكان المحدد حطت القافلة أحمالها بالقرب من مصب العين في البركة الكبيرة التي خصصها المرحوم عيسى الرميح لسقيا السابلة والعربان التي ترد في فصل الصيف، سألت مرافقي عبد العزيز الشقيران عن هذه العين وكيف تجري ومن أين منبعها، أسئلة كثيرة أرجأ الاجابة عليها إلى الصباح، حيث كلفه الوالد مع أبي يوسف وحمد الشبعان للذهاب إلى بيت أمير قصيبا(١) وهو يومئذ حمد الراضي ـ لاحضار الحطب، وكان بيته مفتوحاً دائماً. هكذا سمعت. عاد الخويا من بيت الأمير ومعهم سراج يلوح ضوؤه ومعهم اثنان من الرجال يحملون الحطب وفي مقدمتهم الأمير الذي قام عند طرق الباب وهب لاستقبال ضيوفه وطلب منا أن يكون النزول في بيته، واعتذر الوالد والعويسي للرجل الكريم، لكنه أصر اذا لم يحضروا إلى قصره فلابد من موعد آخر، للضيافة، فوعدوه مساء الغد، وعاد إلى قصره مرسلا أحد خوياه ومعه ذبيحتان لعشاء القافلة هذه الليلة.

بدأ أبو يوسف وحمد الشبعان يذبحان الخراف ويعدان العشاء، وكانت سهرة قضيناها في شراع محمد العويسي، سمعت فيها لأول مرة أحاديثهم، ورحلات البيع والشراء وسفرات العقيلات الأوائل، وأحسست بنوع من الالفة وبدأ لساني ينطق بأسئلة كثيرة عن الرحلات والسفرات، وعن موارد المياه.

---

(١) والد راضي الحمد أمير قصيبا الحالي.

عرفت أن قصيبا فيها مزارع كثيرة، ونخيل عامرة، وفيها عين تجري من أحد الجبال وتصب في مزرعة عيسى الرميح، من أكبر وأشهر العقيلات الأوائل، حفر هذه العين واتخذها مقراً لاقامته في الصيف، يرتادها هو وكبار العقيلات وهى مجمع للعقيلات عند سفرهم ترد ابلهم على حوض كبير بناه للسقياء، ومضافة كبيرة يستضيف بها السابلة والمحتاجون من العقيلات وغيرهم.

وقصيبا لها شهرة معروفة في التاريخ القديم، حيث ذكرت المراجع أنها أرض لبني تميم، وقيل لبني امرىءالقيس وللحرب في قصيبا يوم معروف باسم يوم أواره(١).

أقمنا قي قصيبا يوم الحادي عشر، و بدأت في التعرف على مجرى العين بداية من مصبها قي حوض كبير مبني من الحجارة والطين، وتنساب المياه بانحدار من جبل ليس عالياً، والمجرى كبير ومسقوف وكل خمسين مترا تقر يباً تجد فتحة تنظر منها على سير المياه.

وفي المساء أقام حمد الراضي ــ رحمه الله ــ مأدبة عشاء وسهرة ممتعة.

---

(١) معجم البلدان ياقوت جـ ٤٠ ص ٣٦٦ ــ ٣٦٧.

قال الأعشى:

وتكون في السلف الموازي ... فقرأ وبني زراره

أبناء قوم قتلوا ... يوم القصيبة مذاواره =

تبودلت فيها الهدايا وهذه إحدى العادات العربية القديمة.

وفي اليوم الثاني عشر بدأت جولة في المزارع والنخيل وطرق توزيع الري إلى الأراضي الزراعية التي تُسقى من ماء العين بأيام محسوبة، ولما حل المساء بدأت الرعايا تصل وتم توزيع السقياء للابل حيث يرد إلى الماء كل مرة عشرون رأساً دفعة واحدة، فاذا رويت أرسلت الدفعة الثانية، وهكذا بداية من صلاة العصر حتى صلاة العشاء، وأخذت الابل أماكنها في المبيت فجهزت موائد العشاء للرعيان والملاحيق.

في صباح اليوم الثالث عشر ضرب للرعيان موعد للسقاية على مورد زرود، فتجهزت القافلة للمسير فملئت قرب الماء. فالمورد

= وقالت وجيهة بنت أوس الضبية:

وعاذلة هبت بليل تلومني
على الشوق لم تمح الصبابة من قلبي

فمالي ان أحببت أرض عشيرتي
وأحببت طرقا القصيبة من ذنب

فلو أن ريحا بلغت وحى مرسل
خفيفا لناجيت الجنوب على النقب

وقلت لها أدى إليها تحيتي
ولاتخلطيها طال سعدك بالترب

فإني إذا هبت شمالا سألتها
هل ازداد صداح النميرة من قرب

التـالـي بـعـد قـصيبا هى (ماء زرود) وهو على مسافة يومين من قـصـيـبا. وسارت القافلة ووجهتها إلى زرود وقت القيلولة توقفت القـافـلـة (للـمـضـحـى) بـاحـدى الـر ياض التي تفوح منها روائح الاعشاب نزلت الأحمال عن الابل وتركت ترعى.

أطعمة الغداء والقهوة كانت قد جهزت قبل تحرك القافلة من قـصـيـبـا حـيـث أنـزلـت الـقـدور والصواني والقهوة والشاي معبأة (بـالـزمـزمـيـات) وأوانـي مصنوعة من الصيني المطلي باللون البني وهـى تـشبه الثلاجات الصغيرة التي تحفظ البرودة والسخونة لكنها بـدائية فهى مجرد وعاء لحفظ القهوة أو الشاي، واذا كانت المسافة بعيدة يعاد تسخين القهوة أو الشاي.

تناولنا وجبة الغداء وصلينا الظهر والعصر قصرا وجمعاً، سارت الـقـافلة بعد ذلك حوالي خمس ساعات بدأ النفود يظهر من بعيد، فـتـبـدلـت الأرض من أرض طينية إلى أرض رملية مليئة باشجار الغضا وفي أول مرتفع نزلت وأنزلت الاحمال و بدأ الجميع يجمعون الحـطـب مـن أشـجـار الغضا أوقدت النيران والطباخون والقهوجية يعدون طعام العشاء.

وعلى ضوء النار وفد أحد الأعراب ونحن جلوس و بعد السلام والـتحيات بادره الوالد يسأله عن الأرض والربيع والابل والمواشي أسـئـلـة كـثيرة، وأجابه على كل سؤال كنت منصتاً لهذه الاسئلة والأجـوبـة: الابـل، الأغنام، الربيع، الأرض طيبة، ترديد أماكن لم أعرفها، (سـحـيـبـه) مـرة فـي أول الشتاء: عرفت أنها (سحابة) أنـزلـت مـطـرا عـلـى مـكـان مـعين يـعـرفه العقيلات وغيرهم من الأعراب.

تـلـك لغة ومصطلحات لم أكن أعرفها : الربلة ــ الخمص ــ الـغـضـا ــ الـنـصـى ــ الارطـاء، الـرمـث هـو نـوع من الاشجار

والاعشاب والتي تقبل عليها الابل. هو يسأل والبدوي يجيب بلهجته (الربلة ها الطول) النصى طول (الشبر) إلى غير ذلك من المصطلحات إلى أن قال (والله يذكرون) الجند قريب من حائل.. وعرفت أن الجند هو (الجراد) ومعنى ظهوره القضاء على تلك الأعشاب التي أسهب في ذكرها وحدد أماكنها.

بعد الانتهاء من تناول طعام العشاء تركنا الأعرابي مودعاً شاكراً للضيافة ولم ينس بفطنته أن يذكر أنه رأى أربع رعايا على مسافة ليست بعيدة منا في أحد المنخفضات هي بالطبع ابلنا.

وكان الجو قد بدأ يميل إلى البرودة و يزداد الهواء شدة شيئاً فشيئاً حيث لطفت نسائمه من حرارة الجو، واخترت ركنا من الشراع (كومت كومة من التراب) فجعلته وسادة أضع عليها طرف الفراش لتصبح مخدة، تلك التعليمات تلقيتها من مرافقي في أول ليلة كنا في قصيبا عندما جمع لي بعض الأحجار ووضع عليها الفراش لتصبح مخدة أنام عليها، هذه هى أفرشة الصحراء، إما مجموعة من الحجارة أو كومة من التراب، ولاشك أن مخدة من التراب أكثر راحة قليلا من مخدة الحجارة والفراش عبارة عن طراحة من القماش محشوة بالصوف المأخوذ من الاغنام فلم نكن نعرف حشو القطن حينئذ ولم تكن المخدة ضمن الفراش. ومن شدة التعب رحت في سبات عميق، ولم أفق إلا على صوت يناديني: اصحى، فقد وجبت صلاة الفجر، فصحوت من نومي واتجهت إلى حيث الكثير من أفراد القافلة يؤدون صلاة الصبح واقيمت الصلاة، وبعد أن فرغنا منها تناول الجميع افطاراً عبارة عن أقراص (الكليجا) وهى مصنوعة من الدقيق والسكر ومحشوة

بالهيل والقرفة والسكر، وهو مايعرف الأن بأقراص البسكويت، حيث تتفنن في صناعته بعض البيوت في مدينة بريدة.

وفي اليوم الرابع عشر، سارت القافلة قبيل شروق الشمس حيث كان الجو لطيفاً والابل تتهادى على أرض النفود وفي أثناء حديث الوالد والعويسي في مقدمة القافلة صاح بهم عبد الله الحربي يقول هذه أرض (الضباء) الغزلان ولم يكمل كلامه الا ويصدر صوت آخر من الوالد يقول (هذى جميلة ضبا) مجموعة من الغزلان لم أعرف مايعني إلا أنه رأى ضبا جميلاً لكني رأيت مجموعة وفسر لي مرافقي أن الجميلة تعني المجموعة، واقتربنا أكثر إلى حيث الضباء فرأيت ضبيا صغيراً خلته لايقوى على السير فنزلت تركته الجميلة عدوا وبقى هو في مكانه، قفزت من راحلتي إلى حيث هو، قربت منه واذا هو يقفز قفزة طويلة، ابتعد عني ثم رقد في مكان آخر. حاولت أن أتبعه سمعت الوالد بصوت عال يقول لايتعبك لن تستطيع اللحاق به، ركضت وراءه، ولكنه هذه المرة قفز كلمح البصر، قعدت إلى راحلتي واعتليتها وسرت مع القافلة وأنا بين مكذب ومصدق، مافعله بي هذا الضبي الصغير.

كان عبد الله الحربي وهو صياد ماهر قد ترك القافلة عدوا على راحلته وراء جميلة الضبا فسمعنا طلقات النار، واتجهت القافلة إلى حيث مصدر الطلقات وعلى مسافة بعيدة رأينا عبد الله يلوح لنا (ببندقيته) من بعيد عرفنا أنه اصطاد أحد الغزلان، وصلنا إليه وإذا هو قد اصطاد اثنين. كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة صباحاً. وفي أثناء ذلك هبت عاصفة رملية وكانت الابل لاتقوى على مجابهة الريح فاضطررنا إلى البقاء في أحد المرتفعات الرملية، وأنزلنا الاحمال ولم نستطع نصب الخيام،

وأخذت العاصفة تشتد جمعنا أكياس السكر والشاي والأحمال الأخرى وجعلناها ساتراً يقينا من لهيب الرمل. وقيدت الابل بالحبال وتركت ترعى، لم نستطع عمل شيء. ثم بدأت العاصفة تهدأ، واستطعنا نصب إحدى الخيام وأوقدنا النار لشي الغزلان وطهي الطعام وإعداد القهوة، وبعد أن فرغنا ظهرت أسراب من الجراد حطت على الأمتعة وخشينا من أن يصل الجراد إلى اكياس السكر ويحدث بها أضراراً، فحاولنا نصب إحدى الخيام ونجحنا في جمع أكياس السكر، وغطيناها بشمع سميك، وهكذا بدأ العويسي يحمد ربه فبضاعته من السكر، ولو قدر للجراد من أن يحط على أكياس السكر لتناثرت حباته واختلطت بحبات الرمال التي طمست أعين الكثير منا حتى أن أبا يوسف وهو الذي بذل مجهودا في حماية السكر أخذ يومين يعاني من التراب في عينيه.

وأخيراً هدأت العاصفة في نحو الساعة الرابعة مساء أي بعد العصر، وحملنا الابل وسارت القافلة بعد هذا اليوم الذي قضيناه تحت رمال الصحراء.

وصلنا إلى أحد المنخفضات الرملية أرضها تميل إلى الاحمرار ورمالها ناعمة بعكس مبيتنا في الليلة السابقة. حطت القافلة قبل منتصف الليل بقليل، وكانت الأرض مليئة بأشجار الرمث والنصي وهي ماتقبل الابل على رعيه، إذاً اختيار هذا المكان رغم حاجتنا لتعويض المسافة التي فقدناها بسبب العاصفة له جانبان: الأول لراحتنا وراحة الابل، ثم هذه المراعي الخصبة التي تعوض مافقدته الابل. أنزلت الأحمال وتركت ترعى مع أحد الرعيان، وكان القمر بدرا والسماء صافية، أكلنا من بقية لحم الغزالين وتناولنا القهوة والشاي ثم جلسنا للسمر.

كان الوالد رحمه الله حريصاً على أن يعطيني تعريفات للأودية والشعاب والامواه والقرى المجاورة لها، سواء كانت هذه في طريقنا أو قريبة منه، كان يحدثني قبل هبوب العاصفة أننا في مسيرنا لو اتخذنا اتجاه الشمال الغربي عندما تحركنا من قصيبا لكنا قد وصلنا إلى القواره، ولو سرنا من نفس المكان باتجاه الشمال الشرقي لوصلنا إلى مورد الأجفر.

الأجفر (الجفار)(١) :

جمع قلة لجفر وهى البئر الواسعة لم تطو واقعة بين قيد والخريجية قال الزمخشري ماء لبني يربوع انتزعته منهم بنو جذيمة.

والجفار جمع ماء لبني تميم وتدعيه ضبه، وقيل الجفار موضع بين الكوفة والبصرة. و يوم الجفار من أيام العرب معلوم بين بكر ابن وائل وتميم بن مر.

وهى البئر الواسعة القعر لم تصو يقول ياقوت ولا أدري آي جفر أراد الشاعر نصيب بقوله:

أما والذي حج الملبون بيته
وعظم أيام الذبائح والنحر

لقد زادني للجفر حبا وأهله
ليال أقامتهن ليلى على الجفر

القواره :

عيون ونخل كثير لعيسى بن جعفر تنزلها أهل البصرة إذا أرادوا المدينة إلى بطن الرمة وقيل ماء لبنى يربوع.

---

(١) معجم البلدان لياقوت، جـ ٢ ص ١٤٤ ـــ ١٤٦.

تلك كانت أسماء موارد لم تكن على الطريق الذي سلكناه ولست أقطع هل الأجفر الذي عناه الشاعر، أم أنه لمواقع أخرى.

ثم وصف لي الوالد أيضاً مورد لينة وهو لايبعد عن مورد زرود سوى مرحلة واحدة، وقد قيل عنه(١) لينة موضع في بلاد نجد كثيرة الركى ماؤها طيب وبه حوض السلطان ويقال إن به ثلاثمائة عين وهومورد لبني غاضرة، قال الأشهب بن رميلة:

ولله درى أي نظرة ذى هوى
نظرة ودوني لينة وكثيبها

وقال مضرس الأسدي :

لمن الديار غشيتها بالأثمد
بصفاء لينة كالحمام الركد

أمست مساكن كل بيض براعه
عجل تروحها وان لم تطرد

صفراء عارية الاخارج رأسها
مثل المدق وأنفها كالمسرد

وسخان ساجية العيون خواذل
بجماد لينة كالنصارى السجد

يقول ياقوت : وقرأت في ديوان مضرس في تفسيره لهذا الشعر قال: لينة ماء لبني غاضرة يقال ان شياطين سليمان احتفروه وذلك أنه خرج من أرض بيت المقدس يريد اليمن

---

(١) معجم ياقوت (معجم البلدان) جـ ٥ ص ٢٩ ــ ٣٠.

فتغدى بلينة وهى أرض خشناء فعطش الناس وعز عليهم الماء فضحك شيطان كان واقفاً على رأس سليمان فقال له النبي سليمان: مالذي يضحكك فقال أضحك لعطش الناس وهم على لجة البحر فأمرهم سليمان فرضبوا بعضهم فانبط الماء. وقال زهير:

كأن رقبتها بعد الكرى اغتبقت
من طيب الراح لمايعد أن عشقا

شج السقاه على ناجودها شبما
من ماء لينة لاطرقا ولا رنقا

وإذا كانت قصيبا عندما وصلنا إليها لايوجد فيها سوى عدد قليل من بيوت الطين، عدا قصر الأمير وقصر عيسى الرميح التي تتميز من حيث الحجم والمساحة فان قصيبا الآن قد أخذت حظها من العمران الحديث إلى جانب الاحتفاظ بالبيوت القديمة.

وكذلك لينة أصبحت الآن مدينة كبيرة فيها إلى جانب قصر الامارة: والمالية فروع من الوزارات المختلفة وهى تتبع لامارة حائل إداريا.

هذا هو اليوم الخامس عشر من شهر جماد الثاني ١٣٦٤هـ من رحلتنا، وفي صباحه الباكر سارت القافلة باتجاه مورد زرود الأرض مليئة بخيرات الله من العشب، الابل ترعى وهى سائرة وبعد أن قطعنا مسافة لابأس بها (ضحينا). أنزلت الزمزميات وفيها القهوة والشاي، وتركت الابل مع أحد الخويا ترعى بأحمالها وبعد أن قضينا فترة من الراحة واصلنا المسير. الوالد والعويسي ينظران (بالمكبرات) للتأكد من أنهما يسيران بالاتجاه الصحيح إلى المورد، فالخبرة والمعرفة بالدروب اكتسبها العقيلات من خلال

سفراتهم الكثيرة والتعرف على طبيعة الأرض في كل مكان في طريقهم.

وتأكد لنا جميعاً حينما رأينا المورد بالعين المجردة حاثين الابل على المسير للوصول إلى المورد، فتقدم الركب عبد الله الحربي وعبد العزيز الشقيران لترتيب السقيا، فالموارد تخضع لتقاليد وأصول، هكذا عرفت.

الفصل الثاني



المورد الثاني
(زرود)

المورد يضج بالناس، الأعراب منتشرون حول البئر، ابل تسقى وأخرى تركت المورد إلى الفلاة، وصلنا إلى المورد مابين صلاة الظهر والعصر، ونصبنا الخيام جنوبي البئر.

ومورد زرود مشهور ومعروف بطريق الحاج القادم من مكة المكرمة إلى العراق زاره أكثر الرحالة العرب وقال عنه ياقوت(١): رمال بين الثعلبية والخزيمية بطريق الحاج. وقال ابن الكلبي عن الشرقي زرود والشفرة والربدة نبات يترتب بين قانية ابن فهليل بن رخام بن عقيل أخى عوض بن ايرم بن سام بن نوح عليه السلام وتسمى زرود العتيقة قالوا أول الرمال الشيحة ـ رمل الشفيق ويوم زرود من أيام العرب مشهور بين بني تغلب وبني يربوع.

يروى أن الرشيد حج في بعض الأعوام فلما تركه تمثل بقول الشاعر:

أقول وقد جزنا زرود عشية
وراحت مطايانا تؤم بنا نجدا

على أهل بغداد السلام فإنني
ازيد بسيري عن بلادهم بعدا

---

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ٣ ص ١٣٩.

وقال مهيار :

ولـقـد أحـن إلـى زرود وطينـتـي
مـن غير مـاجـبـلـت عـلـيه زرود

ويشوقني عجب الحجاز وقد طنا
ريـف الـعـراق وظـلـه المـمـدود

ويـغـرد الـشـادي فـلا يهتز بـي
ويـنـال فـي الـسـابـق الـغـريد

مـاذاك الا أن أقمـار الحـمـى
أفـلاكـهـن اذا طـلـعـن الـبـيد

وحول المورد تكثر الأسئلة، فقد حضر إلى خيامنا بعض الأعراب و يسألون عن أخبار الطريق واتجاهنا والمراعي والجند.

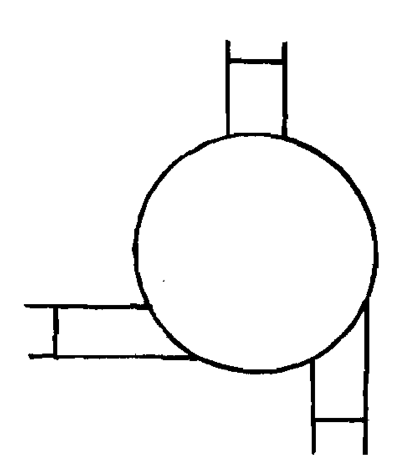
والجند (الجراد). أرسل أمير القبيلة أحد أبنائه للترحيب بالضيوف كعادتهم العربية، فأعدت القهوة حيث وصل الأمير وحوله حاشيته وتناولوا القهوة والشاي، وبدأت معه ترتيبات السقياء.

وكان معنا أربع رعايا وعدد جمال الحملة ستة وعشرون، وكانت البئر مزدحمة بالسقياء، ومضى عليه ثلاث مقامات (المقام عبارة عن قطعة من الخشب مقسمة إلى شقتين يدخل بينهما قضيب من الحديد يوضع عليه (المحالة) أو البكرة ثم يوضع الدلو على البكرة بعد ربطه بحبل سميك وربط نهايته على (مسامة) الجمل و يقف رجل على المقام ينزل الدلو حتى يمتلىء، وعندئذ يصيح هذا الواقف إلى راكب الجمل بصوت عال : صدر

يا(مليحان) إذا كان لون الجمل أملح يسير الجمل حتى نهاية الحبل المربوط في الدلو و يلتقفه الواقف و يصيح بصوت عالٍ: عود يامليحان ثم يصبه في حوض تشرب منه الابل، والحوض مصنوع من جلود الابل ومركب على أخشاب على شكل أرجل، يشبه إلى حد كبير (الترابيزة).

وقد قيل في الأمثال العامية ــ كم فاطر شربت بجلد حوار ــ والمعنى أن هذا الحوض قد صنع من جلد (حوار) صغير الابل وتشرب منه (الفاطر) أنثى الابل الكبيرة وهذا المثل يصور حكمة الموت والحياة.

وأكثرية الآبار المحفورة في الصحراء مثلثة الشكل مطوية بالحجارة وبقدر اتساع فوهة البئر يتم نصب المقامات عليه مثال، الشكل الآتي:



عند ورودنا إلى زرود كانت البئر منصوبة عليها ثلاث مقامات، وعليها زحام شديد لكننا استأذنا في نصب مقام رابع. بدأت سقيا جمال الثاية، وترتب سقيا الرعايا قبل صلاة العصر، انتهت السقاية. وقد وصل فلاح بن ركيان المسئول عن رعايانا

ورتبت معه طريقة السقياء بحيث يرد على البئر عشرون جملاً كل ساعتين، أما رعايا العويسي فقد أرسل لها أن تتأخر إلى الغد.

أثناء وجودنا على الماء سمعت ترحيباً بقادم، حضر أحد الخويا قادماً من البئر يقول للوالد إن محمد العبد العزيز المديفر وعبد العزيز البطين، قادمان من الجوف وهما على الماء، فهبوا جميعاً إلى حيث الوافدين يرحبون بهما، تركا ابلهما يسقيها الرعيان وحضرا إلى الخيام يتناولان القهوة والشاي، وبدأت الأسئلة: الطريق إلى المراعى — المياه — تلك أسئلة لابد من الاجابة عليها حتى يطمئن المسافر، وأسئلة أخرى عن أسعار السكر والشاي والهيل، والقهوة، والمواد الغذائية وغيرها.

غابت الشمس، واشعلت نيران بيوت القبيلة، وجهز بيت الأمير لاستقبال ضيوفه، فقد دعا جميع أفراد العائلة إلى تناول العشاء. ومن الطبيعي أن ضيوف الضيوف يحضرون معهم، وهذه عادة عربية أصيلة لازالت والحمد لله قائمة في أنحاء الجزيرة العربية.

ذهبنا جميعاً إلى بيت الأمير تلبية للدعوة، وكان البيت كبيراً ومقاماً على سبعة أعمدة وهو منسوج من الصوف الأسود، والأرض مفروشة بالسجاد، وهناك حفرة كبيرة فيها النار وحولها الدلال والأباريق، ووسط هذه الحفرة جلس شخص يحرك النار ويصب من هذه الدلة ليتذوقها ثم يصيح الأمير بصوت عالٍ: (قهوة) عند ذلك يتصايح معه خوياه يرددون (قهوة) فيبرز شخص واحد يمسك الدلة بيده اليسرى والفناجيل بيده اليمنى، ويتقدم إلى الأمير الذي يتنازل بدوره عنه إلى أحد كبار الجالسين.

بعد تناول القهوة والشاي حضر شخص وتقدم إلى الأمير وهمس في أذنه، فقام الأمير قائلاً تفضلوا العشاء جاهز، وتقدم أحد الأشخاص إلى النار لاطفائها، وبدأنا الأكل في الظلام الدامس، ولم أستطع كبح جماح فضولي، فسألت أقرب واحد لي لماذا يطفئون النار؟ فرد بصوت خفيف بعد الأكل. وانتهينا من الأكل بهمهمة وصدر صوت من الوالد يقول «أنعم الله عليك» وقامت المجموعة كلها دفعة واحدة. وخرجنا من البيت، وفي الظلام لم أكن أدري من الذي كان بجانبي لكنني عرفته بعد ذلك، كان حمد الشبعان أحد خويا العويسي بادرني بقوله تعال ياإبراهيم، أنت سألت عن سبب إطفاء النار، هذ ه عادة قبلية قديمة(١) يقصد بها أن الضيف يأكل على حريته ودون أن يراه أحد، أما عادة الهمهمة التي سمعتها فهى أيضاً عادة بحيث تكون تنبيهاً للجميع بالقيام والانتهاء من الأكل.

وعرفت بعد ذلك عن هذه العادة الكثير، وقد استطاع جلالة الملك عبد العزيز بن سعود ــ رحمه الله ــ أن يقضي على هذه العادة عندما دعا أهل الرياض إلى مأدبة عشاء بعد انتهائه من بناء قصر المربع، وبعد أن قدمت موائد العشاء وانتصف الناس بالأكل همهم أحد الجالسين، لكن عبد العزيز نهره قائلاً: «والله العظيم ما أحد يقوم من الأكل إلا بعد أن يشبع. هذه عادة قديمة ومن الجائز أن يكون أحد من الحاضرين جائعاً ويتسبب أحد الناس بحرمانه من الأكل» وعرفت بعد ذلك كلمة (سعودية)

---

(١) وهى إحدى علامات الكرم والاريحية عند عرب المملكة، وخير مثال ماتناقلته المصادر العربية القديمة منذ العصر الجاهلي عن هذا الكرم الأصيل. انظر: الأغاني لأبو الفرج الأصفهاني، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان.

بمعنى أن الذي يشبع يكف عن الأكل و ينتظر حتى يفرغ الباقون من طعامهم.

وعدنا إلى الخيام وكان القمر بدراً، فهذه هي الليلة السادسة عشرة وأصوات الأهازيج على المورد والحد، والذي يردده الرعاة يضفي على المكان إحساساً بالطمأنينة، وجلسنا حول النار وراح الوالد ومن معه في أحاديث حول رحلات العقيلات ورحلاتهم والشجاعة وأنواع الابل لكنني لم أستطع مسايرة رفقاء الرحلة إذ رحت في نوم عميق.

صحوت في الصباح الباكر على صوت عبد العزيز الشقيران، ولم تظهر الشمس في هذا اليوم، وتوضأت للصلاة، ثم تناولت القهوة والشاي وبعض من (الكليجاء) الفطير، شاهدت الوالد حول البئر هو والعويسي، تركت الخيام إلى حيث يقفان، وعلى المورد وجدتهما يساومان أحد الأعراب على ستة من الخراف، وشيء من السمن، كان سعر الخروف الواحد يومذاك سبعة عشر ريالاً سعودياً، و(عكة) وعاء السمن به حوالي خمسة كيلو جرامات من السمن البلدي اشتر ياها بستة ريالات، ألقيت تحية الصباح على الوالد وسألته عن محمد المديفر وعبد العزيز البطين، قال لي لقد سافرا فجر اليوم إلى بريدة.

شربت ابل العويسي ولم يبق سوى التجهيز لمواصلة الرحلة، وحسبت الأيام التي قطعناها من بريدة حتى زرود واذا هي ستة أيام، ومورد زرود هو ثاني مورد نصله بعد قصيبا، وقد قال عنه الرحالة ابن بطوطه(١): «زرود بسيط من الأرض فيه رمال، وبه

(١) تحفة النظار لابن بطوطة جـ ١ ص ١٩٢.

دور صغار وهناك آبار مياهها ليست بالعذبة». وفي رحلتنا هذه لم نجد بها سوى بئر واحدة وفيه آثار لبيوت قديمة لكن الرمال طمست معالمها ولم نجد إلا بيوت البدو.

قام الخويا بتعبئة قرب الماء من البئر وفي هذه الأثناء حضر أمير القافلة مودعاً، وتبودلت الهدايا كعادة العرب، وتجهزت القافلة للرحيل، وغادرنا المورد في نحو الساعة التاسعة صباحاً، ولازلنا في النفود الصغير، وقد فهمت من خلال أحاديث العويسي والوالد أن أقرب مورد بعد زرود هو الحيانية وسط النفود الكبير، وفي الطريق يوجد مصانع لتكرير الماء في الحجرة بعد أن نقطع طريق الحاج القادم من العراق إلى المدينة وهو مايعرف (بالمنقى) أي الممهد الذي قيل أن زبيدة زوجة هارون الرشيد قد مهدته وحفرت حوله الكثير من المصانع لمياه الأمطار.

وتحدد سفرنا باتجاه الشمال الغربي وكانت الأرض مليئة بأشجار الأرطاء النصى ـ الرمث، كانت الابل تسير وهى ترعى (ضحينا) بأحد الكثبان الذي أنزلنا الحمولة عنده فهذه المراعي لاتعوض، فأمامنا الحجره قليلة المراعي وأرضها صلبة وقد عرف الوالد من المسافرين أن أرضها غير صالحة للرعي، وهذا سبب بقائنا في هذه الأرض ولم نقطع سوى مسافة قليلة من المورد التالي.

بتنا ليلتنا وفي الصباح تأخرنا عن المسير حتى مابعد طلوع الشمس، وكانت الابل في مراعيها وجمال الثاية تركت مع أحد الخويا للرعي، أحضرت وتجهزت القافلة للمسير، وكلما وطأنا أرضاً فيها مراع توقفت القافلة عن المسير، وأنزلت زمزميات القهوة والشاي ووجبة خفيفة ثم مواصلة السير، وقبل صلاة العصر

وصلنا إلى أرض عشبها قليل وأشجارها يابسة، إذاً لابد من مواصلة السير بعيداً عن هذه الأرض. عند ذلك تأكد لي ماكان البدوي يعني بقوله هناك (خطيطه) يعني سحابة نزلت على أرض وأرض أخرى لم تأخذ حظها من المطر.

وواصلت القافلة مسيرتها ولم تتوقف إلا لصلاة المغرب، وكان الظلام دامساً ولم يظهر القمر بعد، لكن الابل بدأت ترخي رقابها إلى الأرض، فقد وجدت المرعى وهو ماتبحث عنه، عندئذ توقفت القافلة.

في أثناء توقف القافلة حضر إلينا الراعي (فلاح) المسئول عن الرعايا، واقترح أن نبيت ليلتنا هذه، فالأرض كثيرة المراعى وأمامنا الحجرة ومراعيها قليلة، ولاشك أن فلاحاً بنى كلامه على الأسئلة العديدة التي عرف جوابها من الرعاة الذين قابلهم، فلا بأس من المبيت.

وفي الصباح أطلقت (عقل) ابل الحملة وتركت ترعى مع أحد الخويا، فالأرض طيبة وتستحق الاقامة يوماً آخر، وكان هذا رأي الوالد والعويسي، الذي وافقه. ومن طبيعتي أن أنتقل من مكان إلى آخر لأتعرف على أنواع الأشجار وأجمع الحطب وهي تسلية، فقمت بجمع بعض الأعواد وأحضرتها معي، ثم وضعتها على النار وتناولت قليلاً من الشاي وبعض الكعك (الكليجا).

وبدأت أعد الأيام التي مضت علينا منذ أن غادرنا بريدة، واذا هي ثلاثة أيام بما فيها الاقامة في قصيبا، وثلاثة إلي زرود وأربعة منذ أن تحركنا من زرود، إذاً فالمجموع عشرة أيام، في اليوم الخامس تحركنا باتجاه الحجرة ولابد من اجتيازها خلال هذا اليوم.

والحجرة : الأرض الصلبة في وسطها بعض الأكمات والجبال الصغيرة المتناثرة والشعاب الصغيرة وهى الفاصل مابين النفود الصغير والنفود الكبير، وفي وسطها قطعنا طريق الحاج القادم من العراق إلى المدينة المنورة وطريقاً معبداً و يقال له (المنقى) حوله يوجد مصانع عرفت أنها لتجميع مياه الأمطار، لكننا لم نجد فيها مياه.

ثم قطعنا مسافة خمس ساعات وكانت الشمس حارة والأرض جبلية وفيها بعض الشعاب من الرمال الناعمة و بعض الأودية الصغيرة، وقد توقفت القافلة وسمعتهم يقولون هذه أرض المداحل وسألت ماهى المداحل عرفت أن المسافر يحفر حفرة في الأرض ويجد الماء وهى متوفرة من مياه الأمطار. وأخذ الخويا يحفرون الأرض بحثاً عن المياه لكن الأرض كانت جافة فذهبت محاولاتهم أدراج الرياح وهكذا تركنا البحث عن المياه لمواصلة الرحلة.

المتاعب

بعد أن قطعنا مسافة لابأس بها تلبدت السماء بالرياح القادمة إلينا، وكانت عاصفة شديدة واتجهنا بسرعة إلى إناخة الجمال وأنزلنا حمولتها، وجمع الخويا أكياس السكر والشاي ثم وضعوا عليها أكياس القهوة والهيل وغطوه بالأشرعة، واتخذنا منها ملجأ يقينا من العاصفة التي بدأت تشتد، وجميع الأفراد كانوا تحت الأشرعة دون حراك.

واتخذت لنفسي ساتراً من أكياس القهوة وتغطيت بعباءة محاولاً النوم، لكن عبثاً ماحاولت، فزئير العاصفة شديد، وبعد ساعة أو أكثر قليلاً هدأت العاصفة وخرج الرجال من مخابئهم مابين الاكياس، وبدأوا ينفضون ماعلق بهم من أتربة، وتفرق الخويا يبحثون عن الجمال، ووجدوها متفرقة، وتمكنوا من جمعها وقيدوها بالحبال ماعدا جملاً لعويس شد عن الجمال ولم يجدوه، وأخذت العاصفة تهدأ والرؤية تتضح، فذهب عبد الله الحربي ومعه بعض الخويا يبحثون عن الجمل الضائع.

وبعد عناء وجدوه وقد برك حول شجرة كبيرة، ربما هو الآخر قد أعيته زمجرة العاصفة فراح يبحث عن ساتر يقيه هذه الرمال المتحركة، واقتادوه، وبدأنا نستعد للرحيل لتعويض مافاتنا من الوقت، ولم نتوقف إلا لصلاتي المغرب والعشاء قصرا.

وتبدلت الأرض من رمال ناعمة إلى أرض سوداء فيها حجارة وأكمات، عرفت أن هذه هي الحجرة أو الحرة كما تعرف جغرافياً.

جاء في معجم ياقوت : جزيرة العرب حددت في خمسة أقسام هي : تهامة ــ الحجاز ــ نجد ــ العروض ــ اليمن(١)، و يقول:

أجمع العلماء على أن جبال الحجاز سميت بهذا الاسم لأنها تحجز بين تهامة ونجد، فمكة تهامية والمدينة حجازية، وحد الحجاز من معدن النفرة إلى المدينة فنصف المدينة حجازي ونصفها تهامي.

وعن إبراهيم الحربي أنه قال : تبوك وفلسطين من الحجاز. وقال أبو المنذر هشام بن أبي النضر الكلبي في كتاب افتراق العرب: الحجاز مابين جبلي طي إلى طريق العراق لمن يريد مكة سمى حجازا لأنه حجز بين الغور والشام وبين السراة ونجد.

فسار ماخلف الجبل في غربية إلى أسياف البحر من بلاد الأشعر بن وعك وكنانة وغيرها ودونها إلى ذات عرق والجحفة وغار من أرضها غور تهامة وصار مادون الجبل في شرقيه صحاري نجد إلى أطراف العراق.

قال أبو المنذر حدثني أبو مكين محمد بن جعفر بن الوليد عن أبيه عن سعيد بن المسيب قال أن الله تعالى لما خلق الأرض مادت فضربها بهذا الجبل يعني السراة وهو أعظم جبال العرب وأذكرها فإنه أقبل من ثغرة اليمن حتى بلغ أطراف بوادي الشام.

فسمته العرب حجازاً لأنه حجز بين الغور وهو هابط وبين نجد وهو ظاهر وتكونت في شرقيه الظاهر حجرات وهي جبال إذا

---

(١) معجم البلدان لياقوت، جـ ٢ ص ٢١٨ ــ ٢٢٠.

رآها الرائي من بعد ظنها متصلة فإذا توسطها رأى كل قطعة منها منفردة بنفسها يطوف بكل قطعة منها الطائف وحواليها الرمل.

تلك هى الحجرة التي نسير فيها الآن.

وطرق هذه الأرض متشعبة، وأوديتها صغيرة، كما أن بها منخفضات ومرتفعات، لذا فان السير فيها يكون بطيئاً، وقد أرخى الليل سكونه، وأخذت الجمال تتعثر في سيرها، ولكن لابد لنا من المشي.

نزلنا أحد المنخفضات للمبيت، وكانت ليلة لا أنساها، وضعت الفراش على الأرض، كلها حجارة صلبة تخرج من الفراش كأنها المسامير، وكان التعب شديداً وأحسست بلذة في النوم رغم الحجارة التي تركت علامات على جسمي رأيتها في الصباح.

وتأخرت القافلة عن المسير على غير عادتها، والأرض لا تنبىء عن وجود مراعٍ، جاء إلينا الراعي فلاح ولهجته (العنزية) بادر والدي بسؤال: (لقيتوا الماء؟) هل وجدتوا مياه، وكان الوالد يلومه بنظرات موجهة إليه كمن يؤنبه على هذا السؤال، ولايريد أن يشغلني بهموم حملها هو ورفاق الرحلة طوال الأيام الماضية.

نحن الآن في اليوم العشرين، وقد مضى على تحركنا من زرود خمسة أيام، ومن لهجة الراعي عرفت أن الماء على وشك الانتهاء، وأن بحثهم عن الماء في اليوم الماضي كان لحاجة الابل إليه لأنها عطشى، وقد قارب الماء الذي معنا على الانتهاء، ومياهها (مرة) تحركت القافلة وحددوا اتجاهاً للسير وتفرق الوالد والعويسي وعبد الله الحربي على أملهم، يبحثون عن الماء في

مصانع معروفة في هذه الأماكن، وراح بحثهم سدى، فواصلنا السير، ولم نتوقف كالعادة وقت القيلولة، كانت الشمس ملتهبة والأرض سوداء من كل شيء. والاحساس بالخطر بدأ يزداد فكم راح ضحية العطش الكثير في هذه الصحراء، وازداد اقبالي على المياه ومرافقي ينهرني.

بدأت الأرض تتبدل بأكمات صغيرة وجبال غير مرتفعة، وبعض الرياض قد ظهرت: أشجار الشيح والخمص والرمثة، كنا نحمل من المياه ست قرب، وكان مع العويسي نفس العدد، نفد أكثرها ولم يبق فيها إلا القليل، وأصبحت توضع على مقربة من الوالد في شبه تحديد لما نشربه من المياه، أقمنا ليلتنا بقرب أحد المرتفعات، وكانت ليلة لا أنساها، لم أستطع النوم والخطر يقترب منا فلا خبرة لي في الصحراء، وتقنين شرب الماء أضفى علينا صبغة الخوف، وأخذت في هذه الليلة أتساءل، هل هذه هي النهاية فلا ضوء، ولا شرب إلا بحدود.

وفي اليوم الحادي والعشرين تحركت القافلة قبل صلاة الفجر، فالسير في هذا الوقت يبعدنا عن حرارة الجو ويوفر شرب المياه، توقفنا لصلاة الفجر ونزلت القهوة والشاي، كانت نظراتي إلى الوالد وهو في حيرة أتراه يعاتب نفسه؟ كيف يأخذني إلى الموت؟ أم تراه يحس احساساً آخر؟ بأن على أن أتعلم. فالحياة كفاح، ولابد من أن أتذوق حلوها ومرها، شربت فنجالاً من الشاي، ولم أطلب غيره، لكن الوالد أمر القهوجي قائلاً: صب له واحد، شربت الفنجال الآخر على غير رضا، لكنني علمت فيما بعد من مرافقي أن الشاي يقلل من العطش.

تحركت القافلة بعد أن حدد لنا أيضاً المسار، وتفرق ثلاثتهم إلى حيث البحث عن المياه في هذه المنطقة، وبعد مسيرة

ساعتين تقريباً سمعنا طلقا نارياً اتجهت أبصارنا إلى حيث مصدره، سمعت صوت عبد العزيز الشقيران وأبي يوسف يهللان (لقوا الماء) أي وجدوا الماء.

اتجهنا إلى حيث مصدر الطلق الناري تاركين الابل تجري بأقصى سرعة، فوصلنا إلى حيث عبد الله الحربي يقف حول أحد الرجوم ـ حجارة مرصوصة على بعضها مكونة علامة على أكمة، وجدناه يلوح ببندقيته فرحاً، فقد وجد مصنعاً للماء بين الحجارة في شبه بركة كبيرة من المياه مغطاة بحجارة، وبسرعة نقلنا الحجارة وكانت مياه صافية يعلوها بعض القش وأوراق الأشجار، فجمع الوالد والعويسي حولنا وجاءت الثاية بأحمالها ونزلنا على هذا المصنع، بعد أن غسلنا القرب كلها من بقايا مياه زرود المالحة، ولم يطمئن الجيمع إلا بعد أن تم تعبئة القرب جميعها، فنصبنا الخيام وبالقرب منا شاهدنا قطعاناً من الأغنام، فذهب أحد المرافقين واشترى منها أربعة من الخراف، وجاء يقودها معه، راعي الأغنام، ذبحنا اثنين منها وبدأنا في تجهيز الطعام، وهكذا انبسطت أسارير الجميع، فقد زال شبح الموت الذي خيم فوقنا بضعة أيام عصيبة.

حضر إلينا رعيان الابل وأكلوا معنا، وكان احتفالاً وشكراً لله على نعمه وبدأ الرعيان يمتدحون مراعي هذه الأرض، لكن الجمال مضى عليها ستة أيام عن الماء والمورد التالي هو الحيانية في وسط النفود الكبير، ويبعد ثلاث مراحل يومين بليلة واحدة، وأقمنا يوماً حول هذا المصنع من المياه.

جاء الليل وفي الفراش بدأت أستعيد ذكريات الأيام الماضية، هذه هي الليلة الثانية عشرة من مغادرتنا بريدة، سيل

من الذكريات، وكان الراعي فلاح وهو يسأل الوالد عن الماء ونظراته إليه، يعني أن عدم وجود الماء معناه الموت ووجوده معناه الحياة. ثم تذكرت والدتي واخوتي وجدتي وعماتي، إن الفراق يجعل الانسان متفكراً دائماً في الماضي، وهناك أشياء فرضت نفسها على تفكيري في هذه الليلة: السفر في حد ذاته اتقلب في فراشي، وأفراد القافلة ساهرون حول النار، أحاديثهم عن السفر والرحلات، فقفزت من فراشي كمن يحاول طرد هذه المخاوف، واقتربت من النار، والوالد يسأل (ماجاك نوم)، تناولت بعض القهوة والشاي وجلست أستمع إلى أحاديثهم لعلي أستطيع طرد تلك الهواجس، ثم عدت إلى فراشي بعد هذه السهرة ورحت في سبات عميق.

وفي الصباح الباكر تحركت القافلة، وتركنا هذه الأرض الطينية ذات الاكمات الصغيرة المتباعدة، ورياض تفوح منها رائحة العشب، الرمث الشيح، إلى مورد الحيانية وسط النفود الكبير. وكانت الابل تقطف من الاشجار بسرعة عجيبة كأنها تودع هذا النوع من المرعى، وكانت المسافة أمامنا كبيرة، وفيها مخاطر هبوب عواصف رملية تبعدنا عن الاتجاه الصحيح إلى هذا المورد الذي يقودنا إليه الوالد.

وكانت الابل عطشى منذ مورد زرود، فالمياه التي وجدناها لا تكفي إلا لشرب أفراد القافلة فقط، واتفق مع الرعيان على أن يكون مورد الابل إلى الحيانية ليلة الرابع والعشرون من الشهر، ودعنا هذه الأرض حوالي الظهر، سار أمامنا عبد الله الحربي فهو مولع بالصيد والنفود لايخلو من الضبا (الغزلان) مرتفعات ومنخفضات نسير فيها، والابل تسير بسرعة ولم نتوقف للمضحى كالعادة، صوت طلق ناري وثان وثالث ورابع، فتصايح الرجال

يقولون (صاد الرحال)، يقصدون عبد الله الحربي، اقتربنا منه وهو يلوح ببندقيته لقد اصطاد ثلاثة من الغزلان، توقفت القافلة وأوقدنا النيران، ونزلت الاحمال وقيدت الابل وتركت للرعي، وتناولنا طعام الغداء وصلينا الظهر والعصر قصرا، تركت القافلة ولم تتوقف إلا لصلاة المغرب والعشاء وتناول القهوة والشاي، والظلام دامس وسكون الليل يوحي بالوحشة، لكن الحداء والغناء أوحيا إلى بالسكوت، وبدأت أردد معهم الغناء:

يافاطري وان حيناك منيف
تردين غدفا على ليله

عند الحيبلي يطيب الكيف
وانني تريحش ياشصيله

أسأل مرافقي من هو منيف، يقول : هو صاحب مورد الحيانية، وغدفا مورد آخر بعده حداء آخر وأغنية أخرى:

يا الله على كور منجوبه
من شايابات المحاقيبي

أحلى من الهرش وركوبه
بأوساط زمل المعازيبي

وكانت القافلة تسير من مرتفع إلي منخفض، أثناء الظلام، بيد أن النجوم ساطعة وحدد الوالد نجماً يسير على هداه، قائلاً نحن الآن بعد منتصف الليل، وبدأ القمر يظهر ويبدد هذا الظلام.

كنت أتخيل أشياء سوداء في هذا الظلام، وبعد ظهور القمر عرفت أنها أشجار الغضا الكبيرة، سرنا قليلاً واختار الوالد أحد

الأراضي السهلية مكاناً للنزول والراحة فأنيخت الجمال وأنزلت الأحمال ووضعت فراشي وكومت كومة من الرمل كمخدة ورحت في نوم عميق، ولم أفق إلا على صوت من يصحيني من النوم، فتقلبت في فراشي ولم أفق، صاح صوت آخر ـ هو الوالد ـ فأفقت من نومي لأجد أفراد القافلة وقد حملوا الأحمال والابل واقفة، ولم يبق على الأرض سواى، وفراشي والدلة والأباريق على النار، فتوضأت وصليت الفجر بسرعة، وتناولت بعض الفطور من أقراص (الكليجا) وشربت فنجالاً من القهوة وآخر من الشاي، مؤنباً نفسي على هذا التأخير، في النوم، وعلى عجلة حملت فراشي على راحلتي والقهوجي يضع ماتبقى من الشاي والقهوة في الزمزميات وحملها على جمال الثاية. وتحركت القافلة وكان والدي ـ رحمه الله ـ يلهبني بنظراته، يلومني على هذا التأخير وأنا أحاول أن أنظر إليه معتذراً، واقتربت براحلتي من راحلته وابتسم كمن يقول: قبلت العذر.

وقبل الظهر رأينا أشباحاً تتحرك، فنظر إليها الوالد بالمكبر وقال: هذه رعايا من الابل قربنا منها أكثر، فإذا هي رعايانا، واذا الراعي فلاح يخرج إلينا من أحد أشجار الغضا برأسه وشعره الطويل، عندئذ اطمأن الجميع إلى أنهم يسيرون نحو المورد. ضحينا بجوار الابل، وتركنا جمال الثاية ترعى بأحمالها والطباخون يعدون الغداء لأفراد القافلة، والرعيان تغذينا سوياً وافترقنا إلى لقاء في المورد.

واصلت القافلة سيرها، ولم تتوقف إلا لصلاة المغرب والعشاء، حتى قرب الفجر، فتوقفنا على أحد المنخفضات لفترة راحة قصيرة، وألقيت بنفسي على الأرض ورحت في نوم عميق، ولم أنتبه إلا على صوت عبد العزيز الشقيران يصحيني، وأفقت

متأخراً كما اليوم السابق، لكن نظرات الوالد هذه المرة كانت أقل، وليس فيها تأنيب. وسارت القافلة بعد طلوع الشمس بنحو الساعة أو أكثر، ولا أدري، لكنني رأيت على البعد أشباحاً تتحرك، وتوضحت الرؤ ية، واذا هى أغنام و إبل، لابد أنها صادرة من المورد.

المورد الثالث
الحيانية

هذا هو اليوم الثالث والعشرون من شهر جماد الثاني ١٣٦٤هـ هو اليوم الثامن من تحركنا من مورد زرود الابل عطشى وبدأت تجد بالمسير تاركة الرعى، وبدأت أرى علامات من الحجارة موضوعة على رووس بعض الكثبان، تدل على المورد. من أين جاءت هذه الحجارة وسط هذا النفود الكبير؟ لا أدري، المورد في منخفض سحيق من الأرض بين كثبان الرمال العالية، بيوت الأعراب كثيرة حول المورد، فاخترنا جانباً سهلاً من الأرض والابل تجري إلى المورد ولم يستطع الرعيان كبح جماحها، وتقف حول البئر تزاحم الابل الأخرى الواردة على البئر، والرعيان يحاولون قمعها، لكن العرب الموجودين على البئر معروفون بالكرم والشجاعة فعرفوا مدى حاجة الابل إلى المياه ولم يحاولوا منعها وإنما بدأوا يساعدون الخويا على نصب مقام على البئر إلى جانب مقاماتهم الأربعة في محاولة للمساعدة على السقياء.

وكانت جمال الثاية بمجرد أن يُرمى الحمل عن ظهورها حتى تجري إلى الماء. قام الخويا بنصب الخيام وإعداد القهوة والشاي وإعداد طعام الغداء، وكعادة العرب حضر بعض الأفراد إلى حيث خيامنا في مقدمتهم رجل عرف نفسه باسم فلاح، وسلم على الجالسين وقال إنه ابن أمير القبيلة من شمر مرحباً بالضيوف وعارضاً دعوة والده على العشاء، فالغداء ليس وليمة في عرف القبائل، وإنما العشاء الوجيه الخاص بالضيوف، ووافق الجميع على قبول الدعوة.

بعد أن تناول الزائرون القهوة والشاي، ودعوا إلى حيث لقاء على العشاء في بيت الأمير، وبعد أن تم ترتيب السقياء إلى غير ذلك.

نصب المقام على البئر للسقياء، وكان عمق البئر ــ كما عرفت ــ خمسة وثلاثين بوعاً. البوع يساوي (متراً ونصف) أو يزيد قليلاً، وكانت المياه عذبة ومن حسن حظنا أن أكثرية الورد قد صدرت وأن انتظار الورد الآخر لا يأتي إلا بعد يومين شربت الابل (عطنت) أي بركت حول البئر تأخذ قسطاً من الراحة، ثم تعود لتشرب ثانية والخويا ينزلون الدلو ويصبون في الأحواض عينة قرب الماء، ونصب مقام آخر استعداداً لورود الرعايا التي ينتظر وصولها هذه الليلة.

مر هذا اليوم راحة لأفراد القافلة، وجاء المساء، فذهبنا مشياً إلى حيث بيت الأمير وهو بيت من الشعر الأسود مقام على خمسة أعمدة في وسطه أرض محفورة تشبه (الوجار) المكان المعد لصنع القهوة والشاي، وكان الأمير جالساً أمام النار ويوقد النار ويعد القهوة بنفسه، وفرشت الأرض بالسجاجيد ووضعت الأشدة فوقها يتكيء عليها كبار القوم، جلس الجميع حلقة حول النار والأمير يتصبب عرقاً من أثر النار، وكلما جهز (دلة) أمر على خويه بقوله (صب القهوة ياولد)، يدير القهوة وهو واقف، والدلة بيده اليسرى والفناجيل باليد اليمنى، وإذا فرغ أعاد الدلة إلى الأمير وهكذا حتى فرغنا من القهوة.

همس أحد الأفراد في أذن الأمير الذي وقف وقال تفضلوا العشاء جاهز، عندئذ أطفئت النيران وبدأنا تناول الطعام في ظلام دامس، حتى فرغنا. قدمت لنا أشولة وهي عبارة عن

(الفوط) لنمسح بها أيدينا عن باقي الطعام. بادره الوالد بقوله: أنعم الله عليك يابو فلاح، هكذا سمعته وهو يردد صحة وعافية، والله قدركم أكبر من ذلك. الوالد والجميع يقولون (ماجا قصور)، أي بذلتم كل جهد ولم تقصروا في شيء.

تناول الوالد بندقية تسمى أم طلقة صناعة فرنسية، ومغطاة بغطاء من الجلد ناولها للأمير وقال (هذى وصاتكم يابو فلاح) شكره الرجل، وودعنا بعبارات تنم عن الرضاء والمحبة والكرم التي يتحلى بها هؤلاء القوم.

وعدنا إلى شراعنا نتلمس خطانا في هذا الظلام الدامس، حتى وصلنا المخيم وبدأت سهرة من سهرات عقيل، فقد حضر بعض الشعراء من هذه القبيلة وكانت ليلة سمر وأحاديث سمعت عن ترتيبات ورد الرعايا وأنها ستصل قرب الفجر مع بزوغ القمر، وكان عبد العزيز الشقيران وبعض الخويا ينتظرونها حول البئر ويتجهزون للسقياء.

اخترت ركناً من شراعنا كالعادة وفرشت فراشي استعداداً للنوم، وبدأت أسمع حداء وغناء حول البئر، سألت بعض المرافقين هذه عادات العرب على الموارد يتعرف بعضهم على بعض بطريقة الحداء والغناء، والابل تتجمع حول صوت الراعي وتعرفه، رحت في النوم ولم أفق إلا بعد طلوع الشمس وكان الوالد قد تركني هذه المرة آخذ قسطاً كبيراً من النوم.

توضأت وصليت الصبح، وقعدت إلى حيث أفراد القافلة يتناولون القهوة والشاي، وحدث معهم: صالح العبد الله البطين، وقد حضر من العراق ومعه عشرة من الابل محملة بالدلال المصنوعة، وبعض الأقمشة يسألهم عن الطريق والمراعي، ويسألونه

عن أخبار البلاد والمراعي ولوأن طريقه يختلف عن مسارنا لكن هذه عادة العقيلات في الأسئلة والتعرف على البلاد الأخرى، سألوه عن خوياه قال كان وصولي من الدويد ومعه صالح الصعب من أهل العيون، قد تركته واتخذ مساراً آخر يرد على طريق لينة أما هو فقد آثر هذا الطريق لأن وجهته إلى حائل ـ القصيم، وليس معه إلا خوى يدعى محمد من قبيلة حرب.

أقنا اليوم الرابع والعشرين على مورد الحيانية، وهى لفخد الشلقان من قبيلة شمر، وتاريخياً يعرف هذا المورد باسم (حيان) ثنية وموضع في شعر(١).

يقول الشاعر ابن مقبل :

تحملن من حيان بعد اقامة
وبعد عناء من فؤادك عان

وفي معجم ياقوت (الحيانية).

وتجهزت القافلة للرحيل بعد صلاة الظهر، والعصر قصراً، إلى حيث مورد (غدفا) أحد الموارد في طريقنا إلى الجوف. ودعنا صالح البطين، هو ورفيقه وسارا من حيث أتينا. وصالح البطين رحمه الله له قصة طويلة عرفتها بعد ذلك سيكون لها موضع في هذه الرحلة وودعنا أمير القبيلة على أمل لقاء بعد العودة، والابل المحملة تأخذ طريقها بصعوبة فتسير على كثبان الرمال العالية، والرعايا ضرب لها موعد على مورد غدفا صباح اليوم السادس والعشرون، ولم تسر القافلة سوى بضع ساعات (عشينا) في أحد

(١) مراصد الاطلاع في أسماء الامكنة والبقاع جـ ١ ص ٤٤٠.

الكثبان حتى قرب الفجر، وتجهزت القافلة للمسير وكالعادة تركنا عبد الله الحربي على ذلوله للصيد لكنه هذه المرة لم يوفق وانضم إلينا وقت (المضحى) وتناول معنا طعام الغداء وفي أثناء تناول القهوة والشاي حضر إلينا أحد (الصلبة) من قبيلة (صليب المعروفة) وكأن الأرض انشقت عنه وظهر منها، صب الوالد له القهوة والشاي وأخذ يسأله عن الأرض والربيع والمورد والقبائل فسأله العويسي: عندكم سمن أوصيد؟ فهذه القبيلة معروفة بصيد الغزلان وتتبع أرضها ومعرفة طرق صيدها، فرد بالايجاب: معى (عكتين سمن) ولحم أربعة غزلان مجففة، ويحملها على ظهر حمار له كان يخفيه على مسافة بعيدة من مكاننا، اشتروا (عكة السمن) وعاء من جلد الغزلان يوضع به السمن، ويزن الواحد حوالي خمسة كيلوجرامات من السمن.

اشترينا العكة بأربعة ريالات، ولحم الغزال الواحد بخمسة ريالات، وسارت القافلة دون توقف، وعرفت أن مورد غدفا قريب وخيل إلي أنني سوف أراه بعد قليل لكن الليل جاء وتوقفنا للراحة وكل فترة أسأل عن المورد، ويقولون إنه على مسافة بعيدة. عرفت بعد ذلك من الامثال البدوية من يقول (قريب البدو)يعني البدوي يقول قريب ولا تقل عما يقوله بمسيرة يوم.

وفي صباح اليوم الخامس والعشرون كانت القافلة تسير بسرعة ولازلت أفكر بقول (الصلبي) المورد قريب، وتعبت من الأسئلة ولم أصدق حتى رأيت المورد.

المورد الرابع
عذفا وبيوت العرب

حول الماء المورد في أرض فسيحة تحيط به بعض الجبال العالية من الشمال وجنوبه وشرقه كثبان من الرمال العالية وفيه خمس آبار ومياهها قريبة أخذنا الجانب الجنوبي للمورد وعلى مسافة لاتزيد على خمسين متراً نصبنا خيامنا وأنزلنا أحمال الثاية وكالعادة حضر أفراد من القبيلة مرحبين بوصول الضيفان وقد أحضر أحدهم اثنين من الكباش لكل شراع، وأهله كبش، وعلى إحدى الآبار نصبت المقامات للسقياء لكن مياه الآبار قليلة واستغرق سقيا جمال القافلة أكثر من خمس ساعات منقطعة مما جعل الخويا يستريحون قليلاً حتى تتجمع المياه ومن ثم ينزلون الدلو إلى البئر، وهكذا تمت السقياء من بعد صلاة الظهر إلى مابعد صلاة العشاء.

ومورد عذفا يقع بين النفود وأرض الجندل القريبة من بلدة سكاكا، فتجد إلى يمينك وأنت متجه إلى سكاكا مرتفعات جبلية ومرتفعات رملية، ثم تنحسر الرمال لتظهر أرض الجندل طينية وترتفع جبال غربها وشرقها ووديان إلى الشرق والغرب منها.

وأوقدت النيران في مخيمنا بعد أن فرغنا من العشاء، وهذا ايذانا بالدعوة إلى كل زائر، فعادة العرب أن يضيفوا في بيوتهم واذا ما انتهت مأدبة العشاء، أوقدت النيران وحضر الينا مجموعة من الأعراب فيهم الكبير في السن،، وفيهم الشاب، يرافقون

رئيس القبيلة، وبعد أحاديث السمر شكونا لهم ضحولة الماء في هذه البئر، فقال رئيس القبيلة هذه حالة جميع الآبار لدينا، ونستطيع أن نكلف أحد الرجال بالنزول إلى البئر فهى قريبة المسافة ونستطيع تنظيفها ونقل الطينية وبعض المواد العالقة بها، وتم الاتفاق على أن يبدأ في الصباح الباكر بتكليف أحد الرجال لهذا العمل، واذا وردت الرعايا يمكن تقسيمها إلى مجموعات وسقى أول مجموعة على أحد الآبار الغربية حتى ينتهى تنظيف البئر.

حضر الرعيان في الصباح الباكر واتفق معهم على تحديد مجموعات السقى فكانت تأتي مجموعة من ابل العويس وعددها عشرون رأساً ثم يليها مجموعة من ابل الوالد، وهكذا شربت ابل العويسي الدفعة الأولى وكان قد فرغ من نظافة البئر وأخرجت منها كمية كبيرة من الطين والشوائب وأصبحت مياهها وفيرة وقد استغرقت السقياء لرعية من الابل نهار يوم ستة وعشرين وانتهت سقيا الابل جميعاً بعد صلاة العصر في اليوم التالي.

وهو بالقياس أصعب فترة للسقياء في رحلتنا على الرغم من المساعدات التي بذلها أفراد العشيرة واستطعنا أن نتحرك من هذا المورد قبل غروب الشمس لكننا لم نبرح المكان بقليل حتى توقفت الابل وتركت للرعى، فقد أنهك الجميع التعب.

في صباح اليوم السابع والعشرون تحركت القافلة وضرب موعداً للرعيان بالحضور إلى مورد الشويحطية في ضواحي سكاكا واستمرت القافلة بالسير إلى الجوف أو دومة الجندل كما تعرف تاريخياً، بعد أن سرنا مسافة نصف مرحلة بدأت الأرض تتغير، اختفت الجبال وظهرت الكثبان الرملية والأراضي الطينية،

وظهرت المراعي في هذه الأرض مما أتاح فرصة لنا للراحة قليلاً، ثم واصلنا المسير، ولازلنا، نسير في مرتفعات بدأت الكثبان الرملية وعلى البعد رأينا جهام النخيل الكثيرة، وحولها جبال صغيرة وأرض صغيرة عرفت أنها الجوف إلى الغرب من سكاكا.

وقد سبقنا الابل إلى مورد الشويحيطية، ولم تستطع القافلة دخول البلد لأن دخولنا في ذلك الوقت يتطلب اجراءات رسمية، لابد من اتباعها والمرور على نقاط تفتيش حكومية لدخول وخروج القافلة خاصة تلك التي تحمل مواداً تموينية مما اضطررنا معه إلى المبيت خارج البلدة قبيل دخول سكاكا.

وفي صباح اليوم الثامن والعشرين صحونا مبكرين، وصلينا الفجر،ثم واصلنا رحلتنا،وعند اقترابنا من سكاكا وجدنا إحدى الخيام منصوبة وفيها بعض الحراس ورجال الحكومة، ورحبوا بنا وسجلوا مامعنا من المواد الغذائية وعدد الابل، ونوع البضائع، ودخلنا إلى المدينة في حوالي الساعة العاشرة صباحاً.

المورد الخامس

يعتبر مورد الشويحطية في ضواحي مدينة سكاكا هو المورد الخامس تلتقي حوله جميع الابل الواردة من العراق والقصيم وغيرها. أما عن مدينة سكاكا فهي مدينة صغيرة في ذلك الوقت، يغلب عليها طابع البناء الحديث، مقر الامارة اتخذ مكانه على ربوة عالية بجانبه مبنى مالية الجديد بيت القاضي وهو في ذلك الوقت المرحوم الشيخ فيصل بن مبارك لمساعدة الشيخ صالح ابن محمد المرشود و بعض البيوت المتناثرة هنا وهناك تتوسطها مساحة من الأرض كبيرة أقيمت على جنباتها المحلات التجار ية والجامع الكبير.

استأجرنا أحد البيوت في شرقي المدينة وحطت القافلة أحمالها من القهوة والهيل ثم أدخلت إلى البيت الذي يتكون من مجلس كبير تسمى (القهوة) صالة كبيرة صيفية إلى جانب المجلس، مقامة على أعمدة وشرفات وصالة كبيرة أخرى فيها أر بع غرف كبيرة ومطبخ وحمام وفناء فسيح وحوش كبير يتسع لحوالي عشرة جمال وجهز البيت بالمواد اللازمة للأكل والشرب وإناء كبير للمياه، ومكان لتعليق القرب وحمل جمل من الحطب إلى غير ذلك من الاستعدادات الأولية لبيوت ذلك الوقت. و يسكن بجوارنا عبد الرحمن العقل من أهل عيون الجوا وسلمان المطوع وسلمان الصبحي،، وقد سبقتنا إلى الجوف مجموعة كبيرة من العقيلات تسكن المدينة، ولهم محلات و يسوقون بضاعتهم في سوقها الكبير، حيث يشترون و يبيعون: الأقمشة والمواد الغذائية والمواشي والابل

والأغنام ولهم مجلس حول الحوانيت يفرشون السجاد حولها ويجتمعون كل له شلة من الأصحاب.

الماء في ذلك الوقت كان يشكل مشكلة فمعظم الآبار مياهها مالحة، ولايوجد داخل المدينة بئر صالحة للشرب سوى بئر (الصقعبي) يسقون الناس منها طوال إقامتهم بل إنه فتح جزءاً من بيته على الشوارع بحيث يسقي منه أهل البيوت القريبة، فتجد النساء والأطفال حول هذه البئر يسقون النخيل التي تحيط بالمدينة أصناف وأصناف من التمور، نادرة الوجود، يتغزل فيها الشعراء والناس هنا كرماء و بسطاء، لم تصل اليهم المدنية بعد، وعلى طبيعة قبيلة عنزة الهدوء وطول البال، يستطيع المار إلى (الحائط) البستان أن يأكل من ثمار النخيل ولا أحد من أصحابه ينكر عليه التصرف بل أنه يرحب بالضيف و يعرض عليه القهوة.

سكاكا ــ الجوف قديماً دومة الجندل(١) قيل هى غائط من الأرض خمسة فراسخ ومن قبل معربه عين تثج فتسقي مابه من النخيل والزرع، وحصنها مارد وسميت دومة الجندل وسكاكه وذو القارة. وعلى الدومة سور حصين وفي داخل السور حصن منيع يقال له حصن مارد.

وقد شاهدت بنفسي قصر مارد يرتفع مبناه عالياً وحوله سور كبير والباحث عن الآثار يجد الكثير منها.

خرجت مجموعة من العقيلات المقيمين في سكاكا في اليوم التاسع والعشرين إلى حيث مورد صوير شرقي مدينة سكاكا انتظاراً لوصول الرعايا من الابل القادمة من القصيم ومن العراق

---

(١) مراصد الاطلاع في أسماء الامكنة والبقاع جـ ٢ ص ٥٤٢.

وصلت الابل رعيتان لنا ورعيتان للعويسي وثلاث رعيات واحدة لعبد الله السعيد واثنتان لسليمان المطوع وأخيه إبراهيم، اشترى عبد الرحمن الزائدي رعيته من عبد الله السعيد بسعر ثمانية عشر دينارا أردنيا للرأس الواحدة على أن يسلمه القيمة بعد تصريفها في أسواق عمان وفلسطين.

نودي لصلاة المغرب، وأم المصلين حمد المطوع وبعد أن فرغت الصلاة أخذت المجموعة تتطلع إلى هلال (رجب) ١٣٦٤هـ وكان أول من رأى الهلال هو المرحوم عبد الرحمن الباذعي وشاركه الوالد رحمه الله ومعهما بعض الشباب: علي القرعاوي ــ عبد الله الرشده، عدنا إلى البلد مسرعين حيث قابلنا الشيخ فيصل بن مبارك قاضي الجوف ــ رحمه الله ــ في بيته وشهدوا برؤية هلال رجب.

وفي الليلة التالية أقام أمير الجوف عبد الرحمن بن أحمد السديري مأدبة عشاء لكبار الشخصيات من أهل الجوف والمقيمين من العقيلات، بمناسبة افتتاح المبنى الجديد لمالية سكاكا، وكان مدير المالية آنذاك عبد الله المحمد الشقاوي، يساعده أخوه سليمان وقد حضر المأدبة أمير القريات عبد العزيز ابن أحمد السديري ومدير المالية عبد الله المحمد السويلم ومدير مالية حقل عبد الله عبد العزيز السابق، وفضيلة الشيخ فيصل بن مبارك ومساعدة الشيخ صالح المحمد المرشود.

وبعد انتهاء مأدبة العشاء، كانت السهرة في بيت عبد الله المحمد السعيد، وعند تجمع العقيلات فوجئنا بدخول عبد العزيز العبد الله البطين قادماً من القصيم ولم يكن في حالة تسمح بسؤاله وإنما سأل مباشرة الوالد عن أخيه صالح، وهل قابلناه

فعلا على مورد الحيانية، ومن الذي كان معه، وماهي عدد ابله في قافلته. قائلا: لقد قابلناكم على مورد زرود منذ أكثر من شهر وعرفنا من خوياه القادمين من العراق أنه قد ترك بغداد قبلهم، فأين ذهب، تلك أسئلة كثيرة لم يترك الوالد يلتقط أنفاسه ليرد عليه، فطيب الجميع خاطره وأنه لابد أن يكون قد ذهب إلى حائل لتصريف بضاعته.

لكن الأحداث والأخبار تواترت بعد ذلك، فقد جاءت برقية من جلالة الملك عبد العزيز إلى أمير الجوف يسأل فيها عن أوصاف صالح البطين والمرافقين له وعدد الابل، واستدعى عبد العزيز البطين إلى الامارة لاستيفاء بعض الأسئلة، مما جعله يتأكد من أن هناك حدثا ما، عند ذلك تأكد للجميع إما أنه قد راح ضحية بالموت عطشاً، أوضل الطريق في الصحراء، وهو ماجعل الحكومة السعودية تبدي اهتماماً بالبحث عنه، وجند الكثير من الرجال من امارة الجوف تبحث في حدود الامارة، وكلفت إمارة حائل، وإمارة القصيم بنفس الموضوع، وسافر عبد العزيز البطين إلى القصيم للبحث عن رفاقه الذين كانوا معه في بغداد، وخرجوا بعد أن اشتروا بضائعهم والبقاء مع والدته ووالده اللذين أخفى عنهما هذا الخبر.

وانشغلنا بعد ذلك بالاعداد لرحلة السفر، وتجهزت القافلة بعد أن ضرب موعد للرعيان على مورد قارة.

المورد السادس

قراقر تقع غربي مدينة الجوف القديم. وقارة أو ذو القارة تاريخياً(١)، إحدى القريات التي منها دومة الجندل ـ سكاكا وهى على جبل وبها حصن منيع، وقد شاهدت بنفسي هذا الحصن، وعند حضورنا إلى قارة كانت قرية كبيرة وكثيرة المزارع وبها آبار مياهها وفيرة ولايزيد عمقها عن عشرة أمتار.

وفي رحلتنا من مدينة بريدة حتى وصولنا سكاكا قطعنا المسافة في تسعة عشر يوماً، وقد امتدت إقامتنا في سكاكا طوال شهر رجب حيث صرفنا البضاعة من الهيل والقهوة، والرعايا خرجت إلى الفلاة ترعى ثم تعود لمورد قارا ـ كنت خلال إقامتنا في سكاكا أتردد على مسجد سكاكا الكبير حيث الشيخ فيصل بن مبارك ـ رحمه الله ـ يدرس الطلاب من أبناء الجوف الحديث وعلوم الدين، وقد انتظمت بالدراسة وقطعت شوطاً كبيراً في دراسة علوم الدين والحديث.

كان الشيخ فيصل ـ رحمه الله ـ حلو اللسان تصدر عنه ابتسامة بين الحين والآخر تشجع الدارس وتبعد عنه الخوف، وقد تعودت الحياة في سكاكا حيث اللعب مع الصبية من أقراني أبناء عبد الرحمن العقل، نذهب إلى المزارع ونتعلم السباحة في الآبار، وقد رتبت طريقة حياتي اليومية، ففي الصباح الباكر آخذ عربة اليد وفيها قربة فارغة فأذهب إلى بئر الصقعبي لأعبىء

(١) مراصد الاطلاع جـ ٣ ص ١٠٥٦.

القربة وأعود بها إلى البيت ثم أملأ قربة أخرى، واحدة للطبخ والثانية للقهوة ومستلزماتها. ثم أخرج بعد ذلك إلى السوق حيث دكان عبد الله المحمد السعيد أجد الوالد وحوله أصدقاؤه من التجار فنذهب قبل صلاة الظهر إلى البيوت نتناول طعام الغداء، ثم نعود إلى البيت، وقبل صلاة العصر أتوضأ وأذهب إلى المسجد حيث الدراسة على يد الشيخ فيصل رحمه الله، يتخلل ذلك صلاة العصر وما بعده بقليل أعود فأضع كتبي في البيت وأشرب الشاي وأخرج إلى السوق، وظللت على هذا المنوال شهر رجب، وحان وقت الرحيل.

خرج عبد العزيز الشقيران إلى قراقر لمقابلة الرعيان والاتفاق معهم على أن يكونوا على المورد في أول شهر شعبان، ودعت الشيخ فيصل ـ رحمه الله ـ الذي تمنى لي التوفيق، ولم أفكر في يوم من الأيام أن يكون لي معه لقاء، لكن الصدفة جمعتني به للمرة الثانية، حيث كنت في رحلة علاجية في القاهرة وكان رحمه الله قد حضر للعلاج في عام ١٣٧٤هـ وفي مستشفى الروضة قابلته، ولم ينس رحمه الله أن يزور المرضى من السعوديين في هذا المستشفى الذي كان يديره الدكتور عمر أسعد من أهل المدينة وكنا متجاورين في الغرفة، وترددت عليه طوال إقامته القصيرة التي عاد بعدها إلى المملكة ثم انتقل إلى رحمة الله.

تحدد سفر القافلة في أول شعبان ١٣٦٤هـ، ورفاقنا في الرحلة: عبد الرحمن الباذعي وابراهيم المطوع، والوالد والرعايا عددها خمس: رعيتان لنا، ورعيتان لابراهيم المطوع، ورعية لعبد الرحمن الزائدي، أما العويسي رفيقنا في الرحلة من القصيم فقد باع ابله وتخلف في الجوف.

وحدد للرعيان مورد (قراقر) غربي الجوف في يوم الخامس من شهر شعبان أما القافلة فقد خرجت في اليوم الثاني من الشهر. هرجنا إلى الجوف و يقال له (الغرب) الذي وصلنا إليه مساء و بالقرب من المدينة أقمنا ليلتنا وفي الصباح خرجنا لزيارة المدينة، وفيها يقيم أولاد عبد الكريم الدرويش، وتربطهم بنا صلة قرابة، قابلنا ابنهم الأكبر عبد المحسن، ودعانا إلى الغداء في بيته، ثم خرجنا بعد ذلك في تجوال المزارع والنخيل التي تشتهر بها الجوف واشترينا صفائح من التمر يسمى (تمر الحلوه).

والجوف تاريخياً(١) اقليم ومدن في الشمال الأوسط للمملكة العربية السعودية من الطرف الجنوبي لوادي السرحان و يعرف إقليم الجوف باسم (الجويه) وهو غور مثلث الزوايا تقريباً، وله قاعدة واحدة تساير الحافة الشمالية للنفود الكبير، وتقوم قمته الشمالية عند الشويحطية وتحده من الغرب جبال الجويه الغربي ومن الشرق جبال الجويه الشرقي، وتبلغ مساحة الجوف ٣٨٥٠ كيلومتراً مربعاً تقريباً، تفصله عن نجد صحراء النفود، وهذه المنطقة جيدة الري، وفيها الكثير من حراج النخيل، وتعد من المناطق الزراعية الهامة. وأهم مدينتين: الجوف وسكاكا المركز الاداري، أما قارة والطوير فهى قرى صغيرة وموقع الجوف أو جوف عامر على خط عرض ٢٩، ٤٨/٥ شمالاً وخط طول ٣٩، ٥٢/١ شرقاً. ولقد عرف الجوف لدى الجغرافيين العرب الأوائل باسم دومة الجندل أما الاسم جوف بن عامر فيستعمل كثيراً للتفريق بينه و بين الجوف الجنوبي الذي يقع جنوبي شرق وادي نجران وقد اشتهر الجوف كمركز تجاري تؤمه قبائل شمر ــ عنزة ــ الرولة ــ الشرارات وعرف جوف السرحان قديماً شمالى نجد

(١) دائرة المعارف الاسلامية جـ ١٣ ص ٤٥ ــ ٤٦.

ناحية الشام وهو أكبر واحة في بلاد العرب الشمالية بعد القصيم وكانت دومة الجندل (ذكرها بطلميوس باسم ودميرا) وقد عرف المكان من تاريخ النبي عليه الصلاة والسلام، ويقال أنه نسبة إلى أحد أبناء اسماعيل، وقد أنفذ النبي صلى الله عليه وسلم قائده خالد بن الوليد إلى دومة الجندل عندما كان في طريقه إلى غزوة تبوك عام ٩ للهجرة/٦٣٠م.

واختيرت دومة الجندل بعد وقعة صفين عام ٣٧هـ/٦٥٧م مكاناً التقى فيه علي ومعاوية للتحكيم أيام الردة.

وقد زار الرحالة يوكارت جوف السرحان عام ١٨١٢م ثم زارها بوتنكث بعد ذلك بسبعين عاماً، وعرفوا جوف السرحان على أنه مجموعة من القرى الكبيرة وتعرف بالأسواق.

ذلك كان في الماضي البعيد والقريب، وكانت زيارتي لها عام ١٣٦٤هـ هى مجموعة من القرى الصغيرة يتكون منها الجوف، مدينة في الغرب وسكاكا العاصمة الادارية لاقليم الجوف مدينة كبيرة عامرة بأسواقها التجارية ومساكنها المبنية من اللبن والحجارة.

وقد زرتها بعد ذلك بثلاث سنوات في عام ١٣٦٧هـ، يوم أن كان المتطوعون من الشعب السعودي يرابطون فيها أثناء حرب فلسطين عام ١٩٤٨م وقد اختلفت اختلافاً كبيراً. أما الزيارة الثالثة فكانت عام ١٣٨٠هـ كانت الطائرة تحلق بنا فوق الجوف ونزلنا بمطارها. والزيارة الرابعة كانت عام ١٤٠٣هـ وقد لاحظت اختلافاً كبيراً: فشبكات الطرق تربطها بجميع مدن المملكة العربية السعودية، ولها مطار كبير، وشاهدت ازدهار الزراعة بها.

تلك خواطر لابد من تسجيلها ونعود بالقارىء الكريم إلى رحلتنا: أقمنا في مدينة الجوف اليوم الثاني والثالث، تجولنا في المزارع والآثار وتركنا الجوف صباح يوم ٤ شعبان متجهين إلى قراقر وهو المورد بعد الجوف، والأراضي الواقعة مابين الجوف وقراقر كثيرة المراعي وأمامنا وادي السرحان مياهه مالحة والأشجار فيه إذا أكلت منه الابل يصيبها نوع من الاسهال. أقمنا ليلتنا مابين الجوف وقراقر، وفي الصباح الباكر سارت القافلة ووصلنا المورد قبل الظهر، رتبت السقياء للرعايا وانتهت من الشرب قبل غروب الشمس وتركنا المورد وعلى مسافة قريبة منه أقمنا ليلتنا.

قراقر(١) وادي لكلب ومنه قطع خالد بن الوليد المفازة بينه وبين سوى من أرض الشام وفيه قال أحد الشعراء:

لله در رافع انى اهتدى
خمسا اذا ماسارها الجيش بكى

ماسارها من قبله انس يرى
فوز من قراقر إلى سوى

وقال النابغة :

يظل الأماء يتبدرن قديحها
كما ابتدرت كلب مياه قراقر

وقال الأعشي :

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي
وراكبها يوم اللقاء وقلت

(١) معجم البلدان ياقوت جـ ٤ ص ٣١٨.

هو خربوا بالحنوحنو قراقر
مقدمة الهامرز حتى تولت

في الصباح تحركت القافلة باتجاه وادي السرحان الذي وصلنا إليه بعد مسيرة أربع ساعات تقريباً من (مراحنا) وسلكنا الطرق الوعرة والشعاب الصغيرة التي تسيل منها بعض المياه المالحة، الابل المحملة تسير الهوينا، وقد انزلق أحد الجمال بالأرض السبخة وكاد أن ينكسر لولا أن الله سلم، شعاب تسيل مياهها مالحة ويحاول الرعيان مع الابل بأن لا تأكل من الاشجار حتى لايصيبها الاسهال.

وشاهدت قبل الظهر (القريات) وهى المدينة المعروفة مرتفعة على جبل يخيل لمن ينظر إليه أنها تسبح حول مياه راكدة وهو مايعرف بالسراب، ويستحيل كما عرفت على المرء أن يصل لهذه المدينة وقت الشتاء الا من خلال طرق ضيقة مهدت بالحجارة، وقد اختار الامير عبد العزيز السديري رحمه الله أرضا تقع إلى الغرب من القريات طينية رملية قليلة الأملاح لتكون مقراً لمدينة جديدة تم انشاؤها في حدود عام ١٣٥٤هـ أقام فيها قصراً للامارة ومباني للدوائر الحكومية وخططت المدينة الجديدة للسكن ووزعت على الأهالي الذين كانوا في السابق يقيمون في القريات وسميت المدينة (النبك) وأصبحت مدينة القريات القديمة لا تضم سوى مركز للحكومة.

والقريات(١) جمع تصغير القرية، قيل إنها من منازل طي وقيل إنها تبعد من وادي السرحان إلى تيما مسافة أربع ليالٍ.

---

(١) مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع جـ ٣ ص ١٠٨٥.

قطعنا الوادي قبل غروب الشمس، وبعد مسيرة ثلاث ساعات تقريباً بدأت الأرض تتغير إلى أرض طينية رملية كثيرة الأشجار وقليلة الملوحة، بتنا ليلتنا في هذه الأرض. وفي صباح اليوم التالي تحركت القافلة باتجاه النبك.

الفصل الثالث

المورد السابع
مدينة النبك

وقد تقدم إلى المدينة الوالد وإبراهيم المطوع وعبد الرحمن الزايدي، لترتيب سكن للمجموعة وسقيا للابل، وبقيت مع الخويا وقد وصلنا إلى المدينة مابين صلاة الظهر والعصر، وقابلنا على أسوار المدينة أحد العقيلات المقيمين في النبك ليدلنا على مكان السكن، وأمام أحد البيوت حطت القافلة رحالها.

البيت مكون من صالة كبيرة (القهوة) وخمس غرف كبيرة ومطبخ وحمام وحوش كبير ليتسع لعشرة جمال، نزعت الأشدة من على ظهور جمال الثاية وركائبنا وقادها أحد الخويا إلى بئر كبيرة تبعد عن المدينة مسافة كيلو متر وهى البئر المخصصة لسقياء الابل من السابلة، والعرب المقيمين حول النبك أو الذين يردون إليها من الفلاة وحولها بيوت أغراب كثيرة، وبعد صلاة المغرب توجهنا إلى بيت حمد المحمد السعيد حيث تناول الجمع طعام العشاء وقد دعى إليها بعض المقيمين من العقيلات وبعض السكان من الاعوام والاردنيين الذين يعملون بالتجارة وحضر مدير المالية يومئذ عبد الله المحمد السويلم الذي دعانا إلى مأدبة عشاء بعد غد لأنه من الضروري أن يسلم رجال المجموعة على الأمير عبد العزيز السديري وهو صديق لجميع العقيلات، وبتنا ليلتنا في النبك وفي الصباح توجه الوالد وإبراهيم المطوع وعبد الرحمن التازي وحمد السعيد إلى حيث قصر الامارة للسلام على الأمير ودخلنا القصر وهو مبنى كبير داخله حوش واسع يضم مبنى الامارة والإدارة

المالية، والبرق والبريد وهذه الدوائر الرسمية يومئذ هي الموجودة في كل منطقة من مناطق المملكة.

دخلنا إلى مجلس الأمير الذي قابلنا بالترحاب باسماً سائلاً عن أخبار الرحلات والطريق والتجارة إلى غير ذلك من الأسئلة، ثم أومأ إلى أحد الخويا ودخل رجلان يحملان دلال القهوة ثم الشاي، واستأذن الجميع بالانصراف قال الأمير يخاطب الوالد (نراكم عندنا الليلة على العشاء أنت والجماعة) دعوة للعشاء قبلها الجميع وانصرفنا.

دعانا إلى الغداء أحد الأشوام وهو شريك حمد السعيد في التجارة، ثم عدنا إلى البيت كان موعدنا مع الرعيان الحضور إلى القريات مساء يوم ٨ شعبان ١٣٦٤هـ وفي المساء ذهبنا لتلبية دعوة الأمير عبد العزيز الذي قابلنا باشاً كعادته رحمه الله، كان ضمن مجموعة العقيلات ممن دعوا للعشاء صالح الحميد المبارك وهو يلقب (الأمير) وهو معروف لدى العقيلات فإنه سريع النكتة ولديه ملح لايمله الجالسون، قال له أحد العقيلات (تعال هنايا الأمير) قال ما يجتمع حصانين في مربط واحد، إما أنا أو عبد العزيز السديري، ضحك الأمير وقربه حوله وكانت ليلة قضيناها لا أنسى تلك الأحاديث عن الحرب والشجاعة والسفرات والبيع والشراء، وقبل أن يستأذن الجميع مودعين قال لهم الأمير: غداً سيصل الأخ محمد السديري من عرعر وسنقيم له مأدبة عشاء ولابد من حضوركم. اعتذر الوالد بأن لنا موعداً سابقاً مع عبد الله السويلم، ووعد الجميع على أن يحضروا لقضاء السهرة بعد العشاء ووافق.

عبد العزيز السديري هو أكبر أبناء أحمد السديري وهو خال جلالة الملك فهد بن عبد العزيز واخوته، وقد ترك هذا اللقاء أثراً

في نفسي لأنه خصني ببعض المجاملات بصفتي أصغر الموجودين سناً، وبدأ يلاطفني بقوله لازم تكمل الدراسة، ابني عبد الله يدرس الآن في بيروت، وعبد الله هو الامير عبد الله بن عبد العزيز السديري رئيس مجلس إدارة جريدة الجزيرة، وقد سبق له أن تولى وكالة وزارة الشئون البلدية والقروية.

ودارت الأيام، وعدت إلى الوطن بعد غيبة أربعة أعوام لألتحق بسلك الوظائف الحكومية في وزارة المواصلات ثم وزارة الزراعة في عام ١٣٧٥هـ في فرع الزراعة بالقصيم وقد سافرت إلى جدة لبعض أعمال تتعلق بالفرع وقابلت الأمير سلطان بن عبد العزيز الذي كان وزيراً للزراعة.

وحسب الموعد الذي ضرب لوصول الرعايا إلى المورد خرجنا لاستقبال الرعيان وترتيب السقياء على البئر، وردت الابل حسب الموعد، وبدأ الرعيان يسقونها، وبعد الانتهاء بقيت بقرب المورد حتى حضور مندوب من مالية النبك لعدها وتحصيل الرسوم على كل رأس ريال ونصف.

عدنا بعد الاطمئنان على ترتيب السقيا وذهبنا إلى بيت عبد الله السويلم وتناولنا طعام العشاء على عجل وودعناه إلى قصر الإمارة للسلام على الأمير محمد السديري وهو صديق للوالد ومعروف بكرمه وشجاعته وله مواقف كثيرة مع العقيلات ومن فحول الشعراء العرب، أمضينا بقية السهرة في أحاديث وقصص عن البطولات والشعر والشعراء وكان يرافقه شاعر ألقى إحدى قصائده مما أضفى على السهرة جواً من الود والصفاء.

وقد خصني الأمير محمد رحمه الله ببعض المجاملات وانتهت السهرة فقمنا مودعين للأمير عبد العزيز والأمير محمد بأن سفرنا

سيكون غداً بعد أن تنتهي المالية من إجراءاتها الرسمية، وفي الصباح الباكر جاءت جمال القافلة مع عبد العزيز الشقيران ومحمد أبو يوسف وقصدنا إلى المورد حيث كان مندوب المالية قد سبقنا إلى هناك وقام بإحصاء الابل وجهز كشوفاته الرسمية وأعطى لكل تاجر إيصالاً بما دفع من رسوم وكشفاً بعدد الابل نسلمه إلى الدوريات التي تقابلنا على الحدود أو إلى مركز الحويته.

تركنا النبك حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً، وبعد أن قطعنا مسافة توقفنا للمضحى بدأت بقية الابل تتوافد علينا برعيانها واجتمع شمل القافلة وتحركنا بعد أن فرغنا من طعام الغداء باتجاه الشمال الغربي حيث مركز الحديثة. وقد تواعدنا مع الرعيان عل الالتقاء عند نقطة حددها الوالد لهم ـــ فهو الدليل الذي يقود القافلة ـــ وهي واد كثير الخمس لا أعرف اسمه بالتحديد لكنه كان معروفاً للرعيان.

وقبل أن نصل إلى مركز الحديثة أقمنا ليلتنا، وعلى ضوء النار حضر إلينا مجموعة من الرجال على خمسة من الابل مسلحين بالبنادق عرفت أنهم من الدوريات التي تجوب مناطق الحدود، طرحوا السلام ورحبنا بهم أناخوا ابلهم وحضروا لتناول القهوة والشاي، وبدأ الطباخ يجهز لهم طعام العشاء، عرضنا عليهم الأوراق وكتبوا ورقة إلى أمير الحديثة سلمت للوالد وودعونا.

وفي الصباح الباكر تجهزت القافلة للرحيل وقبل الظهر كنا أمام مركز الحديثة وهو مبنى صغير من الطين حوله بيوت من الأعراب، وفيه بئر للسقياء، حطت القافلة رحالها أمام المركز واستقبلنا أميرها وهو من أهل الزلفى وهو رجل مشهور بالكرم،

وصمم على دعوتنا لطعام الغداء، واعتذر الجميع عن تلبية الدعوة، وبعد أن شربنا القهوة والشاي بعث مع أحد خوياه ذبيحتين حملت على جمال الثاية.

وتقضي التعليمات الرسمية لدى مركز الحديثة بأن يكلف أحد الخويا بمرافقة القافلة حتى نهاية الحدود السعودية وعد الابل. فغادرنا المركز بمرافقة أحد الخويا ويدعى خلف بن عناد من قبيلة حرب، وقد رافقنا حتى المكان المحدد للرعيان وهو لايبعد عن الحدود الأردنية سوى بضعة أميال. قد وصلنا إلى المكان قبل غياب الشمس وأقمنا فيه حتى وصول الابل، وبدأ الطباخون يجهزون طعام العشاء، وفي الهجيع من الليل وصل الراعي فلاح ابن وطبان على راحلته وقد حدد مكان الرعايا وفي الصباح الباكر مررنا على الابل، ومعنا الخوى فقام بعدها ووجدها مطابقة لكشوفات مالية البنك، وسلم الكشف وأمضى على صورته التي سلمت لكل تاجر وودعنا الرجل بعد أن حملناه تحياتنا إلى أمير الحديثة.

أما الأمير محمد السديري رحمه الله فقد قابلته في الجوف في شهر جماد الثاني عام ١٣٦٧هـ بينما كنت عائداً من رحلتي هذه التي استغرقت أكثر من ثلاثة أعوام قضيتها متنقلا بين الأردن وفلسطين ومصر، وهو يشارك في تجهيز الحملة من المتطوعين السعوديين لحرب فلسطين، وكنت عائداً إلى القصيم فقابلته وعرفته بنفسي، ثم أمر باركابي مع إحدى السيارات التي تغادر الجوف إلى الرياض لنقل الأطعمة والمواد الغذائية، أي قافلة من السيارات. وقد غادرت هذه القافلة الجوف وعلى رأسها المرحوم عبد العزيز الشبلي وقد ركبت سيارة يقودها عبد العزيز الحمزة والقافلة تضم عشر سيارات يقودها سائقون أكثريتهم من أهل

القصيم منهم صالح البراهيم الموسى الحمود، محمد البراهيم الحمزة، عبد الكريم السديري، وقد غادرنا الجوف صباح يوم السبت ٢٦ جماد الثاني عام ١٣٦٧هـ ووصلنا الرياض في أول رجب تقريباً، ثم ركبت سيارة أخرى من الرياض إلى القصيم.

والمقابلة الثالثة عندما كنت مسئولاً عن الشئون المالية والادارية بوكالة الحرس الوطني للمنطقة الغربية، وسافرت برفقة المرحوم محمد العيبان وكيل الحرس الوطني للمنطقة الغربية إلى جيزان عام ١٣٨٦هـ لتفقد الحرس الوطني هناك، وكان أميراً لجيزان وذهب الوكيل للسلام عليه وكنت معه. فدخلنا على الأمير محمد في مجلسه بقصر إمارة جيزان وسلمنا عليه ودعا الوكيل إلى الجلوس بجانبه واخترت لمجلسي أحد الكراسي وجلست، لكنه رحمه الله، أشار إلى أن أدنو منه وبادرني بقوله: أنت إبراهيم المسلم، فرددت عليه بالايجاب، عندئذ سلم على للمرة الثانية، ومال إلى محمد العيبان يشرح له صداقته مع الوالد والعقيلات، وحبه للقصيم وأهله، وانتهت مهمتنا في جيزان عدنا إلى جدة، وبعدت الشقة بيننا، فقد أنهى عمله الرسمي وسافر إلى القصيم واختار أرضاً في البطين شمالي القصيم أقام عليها مزرعة كبيرة واتخذها سكناً له، ومن حبه للقصيم أوصى في حالة وفاته أن يدفن في هذه المنطقة، وقد كان حيث توفي عام ١٤٠١هـ، وشيع جنازته لفيف من الأمراء ورجال الدولة والمحبون له ودفن بالقصيم، رحمه الله رحمة واسعة.

عودة إلى الرحلة بعد أن ودعنا الخوي التابع لمركز الحديثة، سارت القافلة والرعايا باتجاه الحدود الأردنية وقد عبرنا الحدود مع إشراقة الشمس، وقد تقدم ركب من الخويا لترتيب السقياء على بئر العمرى.

المورد الثامن

بئر العمرى هو أول الموارد التي تقابلنا داخل الحدود الأردنية، وهذه البئر قد حفرت حديثاً مع تخطيط الحدود الأردنية ــ السعودية لتشرب منها العشائر الأردنية السعودية ــ العراقية ــ السورية. وقد عقدت معاهدة صداقة وحسن جوار بين هذه البلدان فيما يخص بتنقلات العشائر فالشتاء تقضيه في الفلاة ترعى في الحماد والوديان وتعود في الصيف إلى بعض الموارد سواء في الحدود الأردنية أو السعودية أو العراقية أو السورية.

كان يقيم على البئر عند وصولنا إليها قبائل من بني صخر وبعض القبائل من الرولة وبعد أن فرغنا من السقياء قبل غروب الشمس تجهزت القافلة للمسير إلى عمان العاصمة الأردنية وقد اعتاد العقيلات أن يبقوا في قرية سحاب ــ التي تبعد عن بئر العمرى بمرحلتين فسرنا ليلاً وقد تغيرت طبيعة الأرض من حولنا وديان واسعة وجبال، وأخذ طريقنا يتخذ تعاريج من الأودية وكلما ارتفعنا إلى مرتفع هبطنا في أودية وشعاب.

كان القمر قد بدأ يظهر. السماء صافية فنحن في ليلة الثاني عشر من شعبان ١٣٦٤هـ وبدأت الجبال تضيق عن واد كبير تصف فيه أفرع من شعاب صغيرة، وسمعت الوالد يقول: سوف (نعشي) نتوقف قبل الوصول إلى قصر النعيرات إلى الصباح لأن هناك دوريات أردنية والسير بالليل يثير ريبة هذه الدوريات، فاخترنا أحد المرتفعات وأقمنا ليلتنا.

في الصباح الباكر تحركت القافلة وسلكنا أحد الأودية الكبيرة في انحدار نحو الغرب إلى حيث قرية سحاب، الوادي كبير ومن حوله ترفع جبال وبعد مسيرة خمس ساعات تقريباً. في هذا الوادي توقفت القافلة للمضحى. ويؤكد الوالد أنه يمكن رؤية قصر على الطريق أودير قديم وحوله بعض البيوت المبنية من الحجارة وهذا الدير غير بعيد عنا وبعد استراحة واصلنا رحلتنا فقربنا من (الدير) أكثر وإذ هو قصر كبير مبني من الحجارة وحوله بعض البيوت المبنية على طراز لم أعهده في الأبنية التي عرفت ترتفع فوق المبنى الكبير إلى الطابق الثاني مايشبه (المنارة أو البرج) وهو مربع الشكل وقد ذكر الوالد أن هذا القصر قديم مهجور وحوله ديبان سامة يسمع لها أصوات في الليل.

ويقال إن هذا القصر فيه بئر للمياه يسقى منها المارة وهذا يوضحه الطريق المعبد بالحجارة الذي يبتدىء من حافة الوادي الكبير الجنوبية تاركاً هذا القصر إلى اليمين، ثم انحدرنا منه إلى الوادي الكبير الذي تركناه ثم يتفرع الوادي إلى مجرى كبير يأخذ إلي الجنوب الغربي وفرع صغير منه يتجه إلى الشمال الغربي وهذا الفرع سلكناه في طريقنا إلى قرية سحاب.

المورد التاسع

قرية سحاب تقع إلى الجنوب الشرقي من عمان وتبعد عنها بمرحلة حيث تنتهي المراعى بهذه القرية ليقوم العقيلات بإرسال الاعلاف الجافة من أسواق عمان. وتبقى الابل في هذه القرية من ثلاثة إلى أربعة أيام تدخل بأحد الأحواش وموقعها يرتفع عن سطح الأرض بحوالي ٨٠٠ متر، ويمكن أن يشاهد جبل الشيخ وهو معروف باسم طويل الثلج، يقول أحد الشعراء(١):

هذا طويل الثلج ياطريق جيناه
وين الحطب بني نسوى عشانا

وفي هذه القرية يخرج العقيلات المقيمون في عمان من التجار والمعدية، وتعرض عليهم الابل يبيع من يبيع و يشتري من يشتري.

وصلنا قرية سحاب قبل حلول الظلام وفي أحد الأحواش حطت القافلة رحالها وادخلت الابل أحد الأحواش الكبيرة وقدمت لها الأعلاف والمياه وقد حضر من العقيلات أثناء وجودنا: عبد الله العمرو ــ عبد المحمد العبد ــ صالح العقل ــ وكانوا ضيوفاً على الوالد في البيت الذي استأجرناه، أما إبراهيم المطوع وعبدالرحمن الزايدي فقد أقاما في بيوت مجاورة وأدخلا إبلهما في الأحواش، وتبدأ السهرات في كل ليلة عند أحد التجار

(١) العقيلات للمؤلف ص ٥٨.

يحضرها بعض أهالي القرية من الذين يتاجرون بالمواشي أو لديهم الأعلاف والأحواش.

تجهزنا للسفر إلى عمان يوم ١٤ شعبان ١٣٦٤هـ بعد أن أقمنا في القرية يومين بقى الرعيان ومعهم الابل أما التجار فقد تحدد حضورهم إلى عمان يوم ١٥ شعبان.

الوصول إلى عمان

وصلنا إلى عمان مساء يوم الأثنين ١٤ شعبان ١٣٦٤هـ وعمان بالفتح والتشديد كانت قصبة البلقاء(١). قال أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري: «عمان على سيف البادية ذات قرى ومزارع ورستاقها البلقاء. وهى معدن الحبوب والأنعام بها عدة أنهار وأرحبة تديرها الماء ولها جامع ظريف في طرف السوق مفسفس الصحن، وقصر جالوت على جبل يطل عليها وبها قبر اوريا النبي عليه السلام وعليه مسجد وملعب سليمان بن داوود عليه السلام قال الأحوص بن محمد الأنصاري:

أقول لعمان وهل طربى به
إلى أهل سلع ان تشوقت نافع

اصاح ألم يحزنك ريح مريضة
وبرق تلالا بالعقيقن لامع

وان غريب الدار مما يشوقه
نسيم الرياح والبروق اللوامع

وكيف اشتياق المرء يبكي صبابة
إلى من نأى عن داره وهو طامع

أما البلقاء(٢) فيقول عنها الدمشقى : إن البلقاء كانت تابعة

---

(١) معجم البلدان، ياقوت جـ ٤ ص ١٥١.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٨ ص ١٩.

لمملكة الكرك حوالي عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م وألحقت بإمارة دمشق في عهد دولة المماليك الثانية وكانت قصبتها حسبان وكثيراً مايتحدث الجغرافيون عن ظاهر البلقاء وذلك يطلق عليها أحياناً اسم (الظاهر) بدلاً من البلقاء والبلقاء بمعناها الشيق تشمل البلاد التي بين زرقاء عمان وزرقاء معين وهي بالتقريب (بيرابا) القديمة وقصبتها السلط.

اختار الوالد سكناً لنا شرقي ميدان رأس العين، بيت مكون من غرفتين وصالة ومطبخ وحمام بمدخل خاص اتخذنا إحدى الغرف للنوم والأخرى للجلوس فرشت بمعدات القهوة والشاي.

اختار إبراهيم المطوع سكناً غربي رأس العين بجوار سكن إبراهيم السليمان الجربوع الذي وجدناه مع بعض العقيلات في عمان مثل صالح السعوى على السعوى وصالح السلومي واختار عبد الرحمن الزايدي سكناً شمالي رأس العين.

ورأس العين هو بداية مجرى عين تسيل في وسط عمان يسكن حولها العقيلات في بيوت متجاورة وفيها برحة كبيرة هي موقف للابل، وأحواش. وتعتبر هذه البرحة سوقاً صغيراً يعرض العقيلات فيها ابلهم وهي غير السوق الرئيسي في عمان حيث تجلب إليه كافة المواشي من الابل والخيول والأغنام والأبقار.

و يقطن في عمان مجموعة أخرى من العقيلات احترفت مهنة التجارة والصرافة مثل علي أبا الخيل ــ محمد الزبن ــ محمد السويل ــ صالح العبد الله المديفر ــ محمد السعيد ــ محمد العبد الله المديفر.

وحضر إلى عمان وقت وجودنا : ناصر العلي الجاسر ــ فهد القسومي قادمين من غزة ــ وعبد الله الدبيخي ــ عثمان الدبيخي ــ علي الناصر الغصن ــ سليمان الصبحي، قادمين من العراق وسليمان إبراهيم الجربوع ــ محمد البراهيم العويد ــ محمد البراهيم الجربوع، قادمين من القصيم.

وفي إحدى الفسحات بجوار مجرى العين أقاموا مسجداً لأداء فروض الصلاة يؤمهم أحد العقيلات، وكان علي أن أبحث عن أبناء العقيلات ممن هم في سني لكنني للأسف بقيت وحيداً إلا من الخويا.

ولا أثقل عليك عزيزى القارىء، لقد انبهرت بمنظر هذه المدينة. شاب في نحو الثانية عشرة يصل إلى مدينة كبيرة تختلف فيها العادات والتقاليد عن بلادنا.

أول مالفت نظري تلك الأبنية المختلفة الطرز من الحجارة والأسمنت، والأنوار تملأ الشوارع، وهى ذات تقاسيم وأبنية، فهى مدينة لم آلفها من قبل. وحول مجرى العين تقوم الأبنية على الضفتين وترتفع حتى تصل إلى قمة الجبال، كثيرة الأشجار، شوارعها فسيحة ولها شارع كبير يبتدىء من رأس العين حتى يصل إلى ميدان فسيح حوله بنايات وفنادق ومتاجر وتتفرع منه شوارع معبدة تصل إلى تلك البنايات المقامة بأعلى الجبال.

وشوارع أخرى تربط البيوت في رأس الجبال بطريقة حلزونية الشارع الرئيسي يخترق عمان من الشمال إلى الجنوب و يتفرع منه شوارع فسيحة تحيطها الأشجار من كل جانب وفيها المحطة الرئيسيه لنقل الركاب بالسيارات من عمان إلى المدن والقرى الأردنية وإلى دمشق وغيرها.

المجتمع الأردني

لقد وصلت إلى عمان وذهني خلو من عادات هذه البلاد وتقاليدها فقد خرجت من مجتمع تحكمه عادات وتقاليد. فالبنت منذ أن تتجاوز العاشرة من عمرها (تتخفر) وتلبس ملابس النساء، من عباءة وغطاء للرأس والوجه.

والمرأة الحضرية لاتتناول طعاماً مع زوجها في طبق واحد، ولاتجلس معهم في مكان واحد فالرجال لهم مجلسهم ومأكلهم ومشربهم.

والمجتمع القبلي في البادية يختلف عن عادات الحضر فالمرأة البدوية ترتدي غطاء للوجه له فتحتان للعينين وتختلط مع الرجال حول آبار المياه وتشاركهم في الرعي وسقياء الابل على الموارد وربما تنزل مع جيران لها إلى الأسواق للتسوق وبيع المواشي والسمن وماتنسجه من أصواف المواشي.

لكنني في هذا المجتمع الجديد فوجئت بعادات استنكرتها في بادىء الأمر وكنت أحمر خجلاً وأنا أرى الفتيات في المدن يحملقن في. ومع مرور الأيام بذأت أتعود على هذا النوع من الاختلاط الذي لم أعرفه.

والمجتمع الأردني هو أول ماقابلني في هذه الرحلة. وسأحاول بقدر الجهد أن أعطي القارىء فكرة عنه، فمن السهل التعرف على أفراد الشعب فهم خليط من القبائل العربية استوطنوا الأردن

وكونوا شعباً عربياً يتمسك بالعادات والتقاليد، وإن اختلفت العادات بين سكان المدن من الأجناس الأخرى غير المسلمين.

والاردني بطبعه حذر في تعامله مع الناس الغرباء ولايضع الثقة إلا فيمن يستحقها لكن وجودي الكثير بالأغوار وهى الملتقى الحقيقي للقبائل العربية كونت صداقات مع الكثيرين ممن كانت لهم صلات بالوالد ــ رحمه الله ــ وكنا نزورهم في بيوتهم ولاتختلف عاداتهم وتقاليدهم عن العادات القبلية. لقد دخلت إلى عمان في ذلك الوقت شاباً في مقتبل العمر مبهوراً بمدينة كبيرة ولم أدخلها كسائح هذه الأيام الذي لديه خلفية عن المدن، انظر إلى شوارعها وسكانها بشيء من الرهبة والحذر ولم يكن فيها أحد من أبناء العقيلات ممن هم في سني أركن إلى مرافقتهم والحديث معهم.

قبعت في البيت أرقب كل شيء إلا من بعض المرات التي أخرج فيها لقضاء حاجتنا من أحد محلات البقالة القريبة، وشيئاً فشيئاً بدأت أخرج إلى حيث رأس العين والمياه تتدفق منها ثم إلى دكان صالح المديفر ومحمد السويل في محاولة للقضاء على هذه الرهبة.

وفي أحد الأيام علمت بوصول محمد العبد الله المديفر، وهو من أقراني، تعرفت عليه وبدأنا نخرج إلى أسواق عمان ثم خرجت مع الوالد سائرين على الأقدام إلى حيث محل علاوي الكباريتي وهو من أهل العقبة، وتربطه بالوالد علاقة عمل ويقوم بعمل الصرافة ويحول للعقيلات نقودهم بواسطته إلى السعودية، فهو وكيل لأحد التجار في المدينة المنورة وهو عبد العزيز الخريجي واخواته.

نزلنا رأس العين فوجدت الشوارع معبدة ونظيفة، ومن هذا الشارع يتفرع شارع يؤدي إلى طريق معان ــ العقبة، وشارع يؤدي إلى أكبر شارع عرفته في ذلك الوقت هو شارع (الحسين) في منتصفه أشار الوالد إلى الجامع الكبير وحوله ساحة كبيرة، المحلات التجارية على جانبي الشارع هذا محل: محمد بن الزين هذا محل علي أبا الخيل وهما من العقيلات اللذين استوطنا عمان.

وصلنا إلى محل علاوى الكباريتي، رحب بنا الرجل وكلف أحد رجاله باحضار القهوة والشاي في زمزميات لها ألوان لم أعهدها من قبل، بدأ يصب منها القهوة، وهنا سمعت رنين جرس، تناول الرجل جهازاً صغيراً بيده عرفت لأول مرة (التليفون) وبدأ يتكلم بواسطة هذا الجهاز وقد استأذن من الوالد أن لديه مكالمة هامة مع أحد عملائه بالقدس وانصرف يخاطب هذا الجهاز العجيب وأسمع طنيناً من الجهاز الموجود بيده.

وقد لاحظت كثرة السيارات تمر في هذه الشوارع من مختلف الأشكال والألوان بعد أن انتهى الرجل من حديثه توجه إلى الوالد يقول (علمي) يسلم عليك، وعرفت بعد ذلك أن علمي هذا هو صراف في مدينة القدس يدعى (شريف علمي) وعنده يودع العقيلات نقودهم عندما يصلون إلى القدس.

كنت مبهوراً بأنواع وألوان وأشكال الملابس التي يرتديها الأردنيون. الرجال يلبسون البنطلون والغترة والعقال بعضهم يلبس الغترة (الشماغ) باللون الأحمر والبعض الآخر يلبس الشماغ باللون الأزرق وبعضهم يلبس الطربوش الأحمر والآخر فارع الرأس رغم البرودة.

وتلبس النساء ملابس مزركشة زاهية الألوان، فالمدنيات يلبسن (البلوزة والجونلة) بحزام في الوسط وسافرات الوجه والبعض يلبسن ثياباً مزركشة ذات ألوان أسود وأحمر، يغطين شعرهن. كنت أخجل من نظرات النساء خاصة المدنيات فلم أتعود أن أراهن بهذه المناظر وإن كنت أختلس النظرات بين الحين والآخر.

تحدد موعد لنزول الابل إلى الغور ثم إلى أسواق فلسطين، وتحرك الخويا من رأس العين عندما هدأت حركة السيارات باتجاه (قرية الزرقاء) شمالي عمان حيث تقيم ابل العقيلات أما الوالد وناصر العلى الجاسر وفهد القسومي وكنت معهم، ركبنا سيارة من الموقف صباحاً إلى الزرقاء، قطعنا المسافة بحوالي الساعة، وتجهزت الابل للمسيرة ركبت راحلتي وودعنا الوالد ورفقاءه على أمل اللقاء في سوق طولكرم وعادوا بنفس السيارة إلى عمان.

كان معنا حصان اسمه (مرزوق) بعثه إبراهيم السلمان الجربوع إلى الشيخ فوزان السابق في مصر سوف نتركه في غزة لدى إبراهيم العبد العزيز الجربوع. وتحركنا من الزرقاء في نحو العاشرة صباحاً، القرى متناثرة، لكن الرهبة هذه المرة لم تدعني أسأل عن هذه القرى التي نمر بها وإنما عرفت أن اتجاهنا سيكون الجنوب الغربي حيث قرية صويلح.

الزرقاء :(١) تأنيث الأزرق، موضع بالشام بناحية معان وهو نهر عظيم يصب في الغور، يروي أحد المعاصرين من العقيلات

---

(١) مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع جـ ١ ص ٦٦٢.

أن بعض الشعراء من أهل الجوف زار قرية الزرقاء ونزل ضيفاً على أحد القوم ولم يكونوا كرماء معه فأنشد يقول(١) -

لا واعلى والشمس يبدى شعفها
من جدد الزرقا على ثغرة الجوف

نسقي بها غرس ضليل وريرقها
إلى نماها للمساير وضيوف

احلى من البلقاء وحامي مرقها
مقلطة للضيف ذرعان وكتوف

بعد مسيرة أربع ساعات وصلنا إلي قرية (صويلح) وهي قرية كبيرة يخترقها الطريق المؤدي إلى (اربد) والشام وبعد أن تركنا القرية توقفنا للرعي والراحة وبدأت الأرض تتبدل فبعد أن كنا في أرض مترامية الأطراف بدأنا في النزول إلى سفوح الجبال العالية، وكان الجو بارداً على الرغم من أننا في الصيف بعد قضاء فترة راحة وواصلنا المسير، ونحن الآن مابين صلاة الظهر والعصر من يوم ٢١ شعبان ١٣٦٤هـ وعلى مشارف مدينة (السلط) ولابد لنزول الابل من الطريق الرئيسي الذي يربط الأردن بفلسطين وتمر به السيارات المتجهة بها، واستطعنا بجهد كبير أن نعبر الطريق وقد تزودنا من السلط ببعض الفاكهة مثل البرقوق والخوخ الذي تشتهر به المدينة، وكان يومها (رطل) البرقوق بأربعة قروش أردنية. وسمعت رفقاء الرحلة يتحدثون عن جبل عال تنزل منه الابل من السير برفق حتى لا ينزلق أحدها. وعبرنا هذا الجبل بسلامة، كانت الابل تنزل منه بصعوبة ومن

---

(١) كتاب العقيلات للمؤلف ص ١٩٤.

حوله منخفض يؤدي إلى واد لو أن أحد الجمال نزل به لفقدناه إلى الأبد.

وصلنا إلى شونة بني عدوان واخترقنا طريق السيارات مرة أخرى في طريق ضيق بين الجبال إلى حيث طريق معبد بالحجارة يترك شونة بني عدوان من قبيلة بني صخر المعروفة إلى اليسار، هذا الطريق كان ممراً للعقيلات الأوائل ويقول أحد العقيلات المعاصرين(١):

كان هذا الطريق دائماً مثاراً للمشاكل بين العقيلات وبني صخر، ففي الزمن القديم كانت تفرض إتاوة على عبوره. وأقام العقيلات دعوى لدى الحاكم الانجليزي في عمان بأن الأوائل من العقيلات قد شاركوا بني صخر في تعبيد هذا الطريق وعلى هذا الأساس أصبح من حق العقيلات وأبنائهم عبور هذا الطريق بدون إتاوة وقد ربحوا هذه القضية ولم يعد أحد من بني صخر يعترض طريقهم.

أما الشونة فهي قرية صغيرة في أسفل الجبل المعروف بجبل عمان من ناحية الغور يقطنها المتحضرون من بني صخر، وحولها بيوت العشائر وتشتهر بزراعة الموز.

والغور : هو غور الأردن بين عمان ـــ والقدس، واد مسيرة ثلاثة أيام وعرضه أقل من نصف يوم وفيه نهر الأردن يشقه في طوله يبدأ سريانه من بحيرة طبريا ويصب في البحر الميت أو بحيرة لوط يقول أحد الشعراء :

---

(١) عثمان العبد الله الدبينحي.

أراني ساكنا من بعد نجد
بلاد الغور والبلد التهاما

وبوصولنا إلى الشونة أصبحنا في الغور، والجو هنا حار، سرنا باتجاه نهر الأردن وعلمت أنه يوجد على هذا النهر جسور للعبور: جسر اللنبي، وهو الجسر المخصص لعبور السيارات والأفراد إلى فلسطين وهناك جسر راميا إلى الشمال منه وجسور أخرى، وقد وصلنا إلى نقطة متوسطة من النهر منبسطة تستطيع الابل عبورها سباحة، هذه المنطقة نزلنا إليها من منخفض تتخلله أشجار كبيرة وكثيرة تسمى شجر القطف وهي شجرة طويلة الأغصان يتدلى منها أوراق بيضاء، تقبل الابل على تناولها وأشجار كثيفة أخرى تختفي فيها الابل مهما كانت أعدادها. فنزلنا في منخفض منها ونزلت أحمال الثاية وتركت الابل ترعى.

بدأت أتعلم ركوب الحصان (مرزوق) الذي عقدت معه صحبة طوال رحلتنا من عمان فكنت إذا أردت ركوبه خفض من رأسه ورقبته حتى أضع جسدي عليه، ومن ثم يحملني إلى ظهره، بينما لم يكن على ظهره شيء، وهكذا اعتدت الركوب وألف هو ركوبي.

وبدأت أسير حول النهر وأسأل زملاء الرحلة من أين يأتي هذا النهر قال أحدهم: إن هذا النهر تجتمع فيه مياه أنهار كثيرة تجتمع في بحيرة (طبريا) ثم يسير حيث يصب في بحيرة (لوط) أو البحر الميت ولايخرج من هذه البحيرة روافد فكنت أتساءل أين تذهب هذه الأيام وعلمت أيضاً أن المياه تصل إلى البحيرة عذبة ثم تتحول إلى مياه مالحة.

أقمنا ليلتنا في الغور ونسمع على البعد صوت هدير النهر. وفي الصباح الباكر حضر الوالد وبرفقته ناصر الجاسر ــ وفهد القسومي بإحدى السيارات وتجهزت الرعايا لعبور النهر فقد حضر من الضفة الغربية جماعة من قبيلة النصيرات قريتهم تقع على الضفة الغربية وكثيراً مايتعاونون مع العقيلات على عبور ابلهم إلى الضفة الغربية وقبل صلاة الظهر بدأ العبور أولا رعية فهد القسومي مكونة من ٩١ رأساً من الابل، ومعها الرعيان والمعدية وجماعة النصيرات يركبون على الخيل: اثنان في مقدمة الرعية، واثنان في المؤخرة بحيث لايحيد أحد عن المكان المحدد للعبور ودخلت الابل إلى المياه ومسافة العبور من النهر تقدر بحوالي ٢٠٠ متر، وتم العبور في حوالي ساعة ونصف الساعة، عاد بعدها الرجال الذين يركبون الخيل لعبور ابلنا المكونة من رعيتين تضمان ١٧٨ رأساً من الابل بالاضافة إلى الحصان (مرزوق) ودخلت الابل إلى الماء وقد شذ أحد الجمال عن بقية الابل وأخذت تقلبه مياه النهر الجارفة وكنت أشاهده في إحدى (الحوامات) ينقلب على ظهره حتى وصل إلى أحد الجروف في النهر فوقف على رجليه والماء يغطي نصفه، وسارت الابل الأخرى إلي الضفة الغربية ونزل وراء هذا الجمل أحد النصيرات وهو خبير في العبور وتمكن من اعادة الجمل ثانية، ولكن إلى الضفة الشرقية.

ثم عبرت ابل ناصر الجاسر مكونة من ١٠١ من الإبل وعبر معها الجمل الذي كاد أن يغرق ولكن هذه المرة هو الذي يقود الابل في المقدمة لأنه سمع صوت الراعي وهو يناديه، وهكذا أتم عبور الابل وبقيت أنا مع الوالد ومعنا زملاؤه، نشاهد هذا المنظر، والابل تبتعد عنا وعاد الرجال المكلفون بالعبور ويطلق عليهم اسم (المعدية) وتسلموا أجورهم عن كل رأس من الابل خمسة قروش.

ثم ركبنا السيارة إلى جسر اللنبي لعبوره بعد أن اطمأن الجميع على ابلهم، وعند الجسر توقفت السيارة وترجلنا منها إلى حيث ضابط الجوازات الأردني ثم ضابط الجوازات الانجليزي على الجسر بعد أن قدمنا أوراقاً عرفت فيما بعد أنها تخص الوالد وناصر الجاسر، وفهد القسومي، وأنا. وهي (ورقة مرور) كانت بمثابة جوازات السفر آنذاك، تؤخذ من مكتب الحاكم الانجليزي في الأردن، فيحتفظ بها حتى العودة من فلسطين.

نهر الاردن(١): ورد في الترجمة اليونانية السبعينية للتوارة باسم (او يورد اناس) وذهب البعض إلى أنه مستعار (ايارد انوس) اسم نهر في أقر يطشْ وقد سمى هذا النهر بعد الحروب الصليبية باسم (الشر يعة الكبيرة)، ولايزال هذا الاسم غالب بين البدو.

يتألف نهر الأردن من اجتماع ثلاثة جداول هي : الحصباني ــ نهر اللدان ــ نهر بانياس و بعد تلاقيها على مقربة من الحولة يتكون نهر الاردن الذي يهبط بعد ذلك هبوطاً شديداً نحو الجنوب حتى يصب في بحيرة (طبر يا) التي تنخفض عن مستوى سطح البحر المتوسط بنحو ٦٨٢ قدماً و يعرف الوادي بعد ذلك باسم (الغور) ثم يصب في البحر الميت الذي ينخفض عن سطح البحر بنحو ١٢٩٢ قدماً، وتبلغ أعمق نقطة فيه حوالي ٢٦٠٠ قدم وليس لهذا البحر أي مخرج في جنوبيه أو غربيه.

ذلك أن شرقي البحيرة جبل عالي الارتفاع أما جنوبه فبعد انتهاء البحيرة يتسع جنوباً ليتكون منه الغور الصافي ولا تمتد إليه مياه هذه البحيرة.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٢ ص ٥٥٠.

وعلى هذا فان مياه النهر تصب في البحر الميت ولاتخرج منه وتتبخر المياه بمقدار ١٣٠٠ جالون يومياً بفعل الحرارة القائظة في هذا الوادي، ومن ثم فإن الحياة في هذا البحر مستحيلة بسبب ازدياد نسبة الأملاح.

ونهر الأردن لايصلح للملاحة بسبب تياراته وتعدد منعرجاته وكثرة المناطق الضحلة المياه فيه. وقد عدد المؤرخون كثرة (المخاضات) التي كانت تسمى في العهود القديمة (معبر، أو معبرة) واستغـــرب الكثير منهم كيف تمكن بنو اسرائيل في قتالهم مع الآراميين الذين يسكنون شرقي النهر، أن يعبروا بجنودهم وخيولهم وعرباتهم، في حين لم تكن هناك جسور مشيدة على ضفتيه إلا في عهد الروم

ونقول : لقد كان الأوائل من العقيلات في تجارتهم من الشام إلى مصر يعبرون النهر سباحة من الضفة الشرقية ــ إلى الغربية قرب قرية (المجامع) قبل التقاء نهر اليرموك بنهر الاردن. وشاهدت بنفسي عبور ابل العقيلات في رحلتي هذه معهم وكيف عبرت الابل (الشريعة) مابين جسر داميا ــ جسر اللنبي ــ فالجمل وعليه أحماله يعبر من منطقة تغطي نصفه أما الجياد فكان لايظهر منها سوى نصف الرقبة مع الرأس ومن المحتمل عبور النهر في أوقات الصيف حيث المياه صافية أما في الشتاء فيستحيل العبور.

فلسطين

بعبور الابل إلى الضفة الغربية لنهر الاردن نكون قد دخلنا فلسطين. يقول ياقوت(١): فلسطين بالكسر ثم الفتح وسكون السين قصبتها بيت المقدس ومن شهور مدنها عسقلان والرملة وغزة (وارسوف) وربما تكون (كفر ياسيف) الواقعة بين عكا ــ يافا ــ قيسارية ــ نابلس ــ اريحا ــ يافا ــ بيت لحم ــ الخليل ــ بيت جبرين وطولها للراكب مسافة ثلاثة أيام أولها رفح من ناحية مصر، وآخرها (اللجون) من ناحية الغور وعرضها من يافا إلى أريحا نحو ثلاثة أيام وأكثرها جبال والسهل فيها قليل.

وقيل انها سميت بفلسطين بن سام بن أرام بن سام بن نوح عليه السلام، وقال الزجاجي سميت بفلسطين بن كلثوم من ولد (فلان) بن نوح.

وقال تعالى: « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله» صدق الله العظيم.

وأول مايقابلنا من فلسطين أريحا وهي مدينة الجبارين في الغور بينها وبين بيت المقدس يوم للفارس وسميت بأريحا بن مالك بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام.

وأريحا تقع في الطرف الجنوبي للغور وموقعها شمالي غرب بحيرة لوط، والطريق منها يؤدي إلى الفارعة المطلع من أرض

---

(١) معجم البلدان ياقوت جـ ٤ ص ٢٧٤.

الغور إلى جبال فلسطين حيث نابلس وفي الشمال من الغور تقع مدينة بيسان(١) بها عين تقول ليلى الاخيلية في ابن الحمير:

جزى الله خيرا والجزاء مكنه
فتى من عُقيل ساد غير مكلف

فتى كانت الدنيا تهون بأسرها
عليه ولم ينفك جم التصرف

ينال عليات الأمور بهونه
اذا هى أعيت كل خرق مشرف

هو الذوب أو أرى الفحالى شتيه
بدرياقة من خمر بيسان قرقف

ومابين جسر اللنبى الذي عبرناه بالسيارات و بيسان يوجد جسر داميا معبر آخر لنهر الاردن.

نابلس(٢) سأل شيخ من أهل المعرفة من أهل نابلس: لم سميت بهذا الاسم؟ قال: إنه كان ههنا واد فيه حية وكانوا يسمونها (لس) فاحتالوا عليها حتى قتلوها وانتزعوا نابها وجاءوا بها فعلقوها على باب هذه المدينة وكل من رآها قال هذا (ناب ـ لس) أي ناب الحية ثم كثر استعمالها حتى كتبوها متصلة، وهكذا غلب عليها هذا الاسم.

وهى مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين مستطيلة أرضها

(١) معجم البلدان لياقوت، جـ ١ ص ٥٢٧.
(٢) نفس المصدر جـ ١ ص ٢٤٨.

حجر بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ وبظاهر نابلس جبل ذكروا أن آدم عليه السلام سجد فيه.

ولم يكن طريقنا الذي اتخذناه بعد طلوعنا إلى جبال فلسطين يصل إلى مدينة نابلس فقد تركناها إلى اليمين باتجاه البيرة(١) بين نابلس وبيت المقدس، ونابلس خربها الملك الناصر صالح الدين حين استنقذها من الافرنج.

ومن البيرة اتخذنا طريقنا إلى اللد طلوعاً مع جبال تقع جنوبي نابلس واللد ذكرها ياقوت (لد)(٢) قرية قرب بيت المقدس في فلسطين ببابها يدرك عيسى بن مريم الدجال فيقتله قال المعلى بن طريق مولى المهدي:

ياصاح اني قد حججت
وزرت بيت المقدس

وأتيت لدا عامدا
في عيد ماري جرجس

فرأيت فيه نسوة
مثل الظباء الكنس

وقد ذكره جميل في شعره :

تذكر أنسا من بثينة ذا القلب
وبثنة ذكراها لذى شجن يصبو

---

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ١ ص ٥٢٦.
(٢) نفس المصدر جـ ٥ ص ١٥.

وحـنـت قـلـوصـى فاستمعت لسحرها
بـرمـلــة لــد وهــى مـشــنــيـة تحبـو

واللـد فـي رحـلـتـنـا هذه غير القرية التي ذكرها ياقوت، فقد وجـدتهامدينة كبيرة ومبانيها عالية وعلى طرز معمارية حديثة وفيها سـوق كـبير للـمـواشـي ومحلات، تجارية تغلب عليها الطابع المدني فـي تـنـظـيـمـهـا ومـعـروضـاتـهـا مـن الـبـضائـع وتدخلها جميع أنواع السيارات والقطارات وفيها الآن مطار كبير.

وقـد خـرجـنـا مـن السوق الخاص بالمواشي إلى شوارع فسيحة يتفرع منها طريق يؤدي إلى الرملة وطريق آخر يؤدي إلى يافا.

الـرملة(١) : مدينة كبيرة بفلسطين، وكانت رباطاً للمسلمين بـيـنـهـا وبين بـيـت الـمـقـدس (ثـمـانـيـة عشر يوماً) وهى كورة من فلسطين.

وأظـن ياقوت قد بالغ في المسافة فيا بينها وبين القدس، فهى لاتـبـعـد أكثر مـن مـرحـلـة واحـدة إذا قيست إلى التحديد الذي حـدده عـن فـلـسـطين كـكـل فـهو يقول من يافا إلى أريحا ثلاث مراحل والرملة لاتبعد عن يافا سوى نصف مرحلة.

وقـد اخـتـلـط الـعمران مابينها وبين اللد فأصبح بحكم التقدم في البناء، لاتبعد مسافات بأقل من عشرة كيلومترات فقط.

عـودا لـيـاقوت ومعجمه، لما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة ولـى أخـاه سـلـيـمـان جند فلسطين. نزل باللد ثم نزل إلى الرملة وعـمـرها، وكان أول مابنى فيها قصره وداراً تعرف بدار الصباغين

---

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ٣ ص ٦٩.

واختط المسجد وبناه وقد سكن الرملة جماعة من العلماء والأئمة فنسبوا إليها. يقول كثير:

حموا منزل الأملاك من مرج راهط
ورملة لد أن تباح سهولها

يافا(١) مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا افتتحها صلاح الدين في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ثم استولى عليها الافرنج في سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م ثم استعادها منهم الملك العادل أبو بكر بن أيوب في سنة ٥٩٣هـ/١١٩٦م.

ويافا عند وصولنا إلى أطرافها من الجنوب في طريقنا إلى غزة كانت مدينة كبيرة عامرة وتدل شوارعها الفسيحة وعماراتها على تقدم مدني وإن كانت قد التحمت في العمران مع تل أبيب ولايفصلهما سوى شارع كبير.

وقد سرنا إلى غزة متجهين بالطريق الساحلي إلى حيث عسقلان واعتقد أنها (المجدل) وعسقلان(٢) مدينة من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين ويقال لها عروس الشام. وقد فتحها معاوية بن أبي سفيان في خلافة عمر ابن الخطاب، واستولى عليها الافرنج ثم استنقذها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣هـ، وقد روى في عسقلان وفضائلها أحاديث مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه منها قول عبد الله بن عمر «لكل شيء ذروة وذروة الشام عسقلان»

---

(١) معجم البلدان لياقوت، جـ ٥ ص ٤٢٦.

(٢) نفس المصدر جـ ٤ ص ١٢٢.

غزة(١) مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر، قال أبو المنذر: غزة امرأة صور الذي بنى مدينة صور على الساحل وفيها مات هاشم بن عبد مناف جد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها قبره ولذلك يقال لها غزة هشام، قال أبو نواس:

وأصبحن قد فوزن من أرض فطرس
وهن عن البيت المقدس زور

طوالب بالركبان غزة هاشم
وبالفرما من حاجهن شقور

وقال مطرود بن كعب الخزاعي يرثى هاشم بن عبد مناف:

مات الندى بالشام لما أن ثوى
فيه بغزة هاشم لايبعد

لايبعدن رب الغناء يعوده
عود السقيم يجود بين العود

بيت جبرين(٢) قرية بين بيت المقدس وغزة وكان فيها قلعة حصينة وبين بيت جبرين وعسقلان وادٍ يزعمون أنه وادي النملة التي خاطبت سليمان بن داوود، عليهما السلام.

وبيت جبرين تقع على الطريق المؤدي من غزة إلى القدس، وقد عمرت وأصبحت مدينة كبيرة وفيها مزارع كبيرة وإلى الشرق منها الفالوجا.

---

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ٤ ص ٢٠٢.
(٢) نفس المصدر جـ ٢ ص ١٠١.

تلك معلومات جغرافية استقيتها من معجم البلدان لياقوت وأضفت إليها معلومات جديدة اكتسبتها في رحلتي هذه من واقع مرورنا على هذه البلدان، وقد اعتبرتها مقدمة لمعرفة بعض البلدان في فلسطين التي زرتها بالفعل.

جبرون(١) ـ الخليل ـ اسم القرية التي فيها قبر إبراهيم الخليل عليه السلام وقد غلب على اسمها اسم الخليل وفيها دفنت سارة، ثم دفن إبراهيم إلى جوارها، ثم إسحاق عليه السلام وزوجته بريفه ثم يعقوب عليه السلام وزوجته (ليا).

وقد ظل مكان المنارة التي دفن فيها الخليل عليه السلام حتى زمن سليمان بن داوود عليهما السلام فأوحى الله إليه أن أبن على قبر خليلي (حيرا) ليكون لزواره من بعدك فخرج سليمان عليه السلام في قوم إلى أرض كنعان وطاف فلم يصبه فرجع إلى بيت المقدس فأوحى الله إليه ياسليمان خالفت أمري فقال يارب لم أعرف الموضع فأوحى الله إليه امض فإنك ترى نوراً من السماء إلى الأرض فهو موضع خليلي، فخرج فرأى ذلك فأمر أن يبنى على الموضع الذي يقال له الرامة وهى قرية على جبل مطل على حيرون فأوحى الله إليه أن ليس هذا هو الموضع، ولكن انظر إلى النور الذي التصق بعنان السماء، فنظر فكان على حيرون وفوق المغارة.

فبنى عليه الحير قالوا وفي هذه المغارة قبر آدم عليه السلام وخلف الحير قبر يوسف الصديق عليه السلام جاء به موسى عليه السلام من مصر.

(١) معجم البلدان لياقوت، جـ ٢ ص ٢١٢.

وقد بنى حول المغارة (حير) محكم البناء حسن تحوطه أعمدة من الرخام، وقدم على النبي عليه الصلاة والسلام تميم الداري في قومه وسأله أن يقطعه حيرون فأجابه وكتب له كتاباً: «نسخته هذا ماأعطى محمد رسول الله لتميم الداري وأصحابه أني أعطيكم بيت عيون وحيرون والمرطوم و بيت إبراهيم بذمتهم وجميع مافيهم عطية بت ونفذت وسلمت ذلك لهم ولاعقابهم بعدهم أبد الآبدين فمن إذا هم فيه فقد أذى الله» شهد أبو بكر بن أبي قحافة وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب رضى الله عنهم.

وقد تعمرت الخليل في العصور الحديثة وأصبحت من أكبر مدن الضفة الغربية من فلسطين ولم يسعدنا الحظ بزيارة المدينة.

ولعلى بهذا أكون قد أعطيت القارىء الكريم فكرة عن أهم المدن في فلسطين وحسبي أنني زرت الكثير منها قبل استيلاء اليهود عليها.

وعودا إلى الرحلة، وصلنا إلى مدينة أريحا بالسيارة قبل المغرب بقليل وذهبنا إلى أحد الفنادق الصغيرة الذي اعتاد العقيلات قضاء الليل فيه. وأقمنا ليلتنا في الفندق وهو مكون من طابقين وصاحبه يسمى (أبو أحمد) تناولنا طعام العشاء وفي الصباح الباكر أخذنا سيارة كبيرة حملت فيها المؤن من الأرز والسكر والشاي والدقيق و بعض الفاكهة، فركب الوالد وفهد القسومي في مقدمة السيارة بينما ركبت مع ناصر الجاسر على ظهر اللوري وتركنا أريحا قبل الظهر باتجاه الشمال إلي حيث قواعدنا مع بقية الخويا الذين عبروا مع الابل قرب جسر داميا.

وهكذا تركنا أريحاً وراء ظهورنا و بعد مسيرة ساعة عبرنا إحدى العيون كانت مياهها عذبة فنزلنا من السيارة، وشربنا

منها، فهي ذات مياه غزيرة تسقى المزارع القريبة منها وقيل إنها جفت أكثر من عشرين عاماً ثم عادت تتدفق من جديد.

وصلنا إلى (الخويا) وقد أقاموا الخيام وأقمنا تلك الليلة، وكانت حرارة الجو قد تلطفت عند حلول الليل، ولم نشعر بتلك الحرارة التي ألهبتنا بالنهار، أما الأرض فطيبة المراعى، وفي الصباح بدأ التجار يفرزون (أجلاب) عدد من الابل يختارونها لكل سوق، فالفلاح في طولكرم يختار نوعاً من الجمال لفلاحته بعكس الفلاح في شمال فلسطين أو جنوبيها (والجلب) يختار كل تاجر عدداً من ٢٠ ــ ٢٥ رأساً من الابل وتجمع ابل هذا التاجر مع ذاك وتذهب إلى الأسواق التي حددوها.

فمثلاً اختار الوالد ٢٠ رأساً من الابل واختار القسومي والجاسر ٥٠ رأساً من الابل فأصبح المجموع ٧٠ رأساً تسلمها عدد ٣ من المعدية وهم رجال من العقيلات اشتهروا بهذا الاسم لمعرفتهم دروب الأسواق، وتركونا في الصباح إلى حيث أسواق (طولكرم) وذهب معهم التجار حتى إذا وجدوا سيارة على الطريق أقلتهم إلى نابلس باتوا فيها ليلتهم وفي الصباح تركوها إلى سوق طولكرم صباح يوم الجمعة الموافق ٢٥ من شعبان ١٣٦٤هـ.

أما بقية الابل فقد تجهزت للمسير ووصلنا في نحو الساعة الرابعة مساء إلى وادي الفارعة حيث يخترق طريق نابلس ــ جسر داميا جبل الفارعة الذي يرتفع حوالي ٢٠٠٠ قدم فوق سطح البحر وهو طريق معبد تسير فيه السيارات ولابد من اجتياز هذا الطريق في بداية الليل بحيث تكون حركة السيارات قد خفت عن هذا الطريق.

وهذا الطريق يشبه إلى حد كبير طريق الهدى بالطائف وتقطعه الابل طلوعاً إلى قرية الفارعة بحوالي خمس أو ست ساعات تبعاً لتوقف حركة السيارات التي كثيراً ماكانت عائقاً. وقد اجتزنا هذا الطريق الوعر بسلامة الله. وفي إحدى (الحواكير) القريبة من قرية الفارعة توقفنا قرب الفجر. والحاكورة قسم من المزرعة مسور. وقد تركت أرضه بعد حصاد الزرع وفيه بقية من الرعي، تقبل عليه الابل وأهل فلسطين تعودوا على مثل هذه الضيافة الليلية وبشرط أن يحترم الضيف شروط الضيافة بحيث لاتتعدى الابل أو المواشي على المزروعات الخضراء، وفي الصباح تحركنا من الفارعة تاركين طريق نابلس إلى اليمين.

نابلس(١) : مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين مستطيلة كثيرة المياه نظيفة ونابلس الحديث معروف ومشهور وقد عرف بجبل النار وهو المدخل الشرقي الشمالي لفلسطين من الاردن.

توقفنا على مفترق الطرق المؤدية إلى نابلس ـــ القدس لتناول القهوة والشاي، وبعض الفاكهة التي حصلنا عليها من إحدى المزارع وسألت الدليل معنا وهو من العقيلات المقيمين في غزة واسمه محمد السويل، عن الطريق التي سنسلكها في رحلتنا هذه، فقال: طريقنا سيأخذ اتجاه الجنوب الغربي من هذا الطريق إلى قرية حواره ـــ سفليت ـــ صرفند ـــ اللد. وفي أثناء توقفنا زارنا أحد المزارعين وعرفنا منه أن أول رمضان سيكون يوم الأربعاء أو الخميس القادم.

---

(١) مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع جـ ٣ ص ١٣٤٧.

سارت القافلة إلى حيث مقصدنا أما الأجلاب التي تركتنا إلى طولكرم فسوف يكون اللقاء معهم في اللد وهو المحطة الرئيسية ــ لتجارة المواشي في وسط فلسطين وسوقها يوم الاثنين جاء الليل ونحن بالقرب من القرية سمعنا فيها الزغاريد والطبول واعترض طريقنا بعض الأفراد يرحبون بنا ويدعوننا إلى حضور حفلة زفاف. فالتفت محمد السويل إلى المجموعة كمن يأخذ رأينا في البقاء، وكانت الابل لازالت تعاني من طلوعها جبل الفارعة وآثار التعب واضحة عليها سقناها إلى أحد المنعطفات في الجبل حتى تعبر إحدى السيارات الطريق تركناها ترعى في إحدى الحواكير وقبلنا الدعوة.

وكانت ليلة لا أنساها، اكتملت بزفة العروس والعريس، وقامت الرقصات حيث اختلط فيها الناس وطلقات نارية في الهواء حتى منتصف الليل، ودعنا أصحاب الدعوة وواصلنا المسير وقبل الفجر كنا في قرية سفليت، فتركنا القرية إلى اليمين نشاهد على البعد قرية صرفند وهي قرية حديثة تدل عليها أبنيتها ذات الدور والدورين والأنوار الكهربائية وهي تربط مابين اللد، وناتانيا بخط حديدي يخرج من اللد إلى حيفا.

اليوم هو السبت ٢٦ من شعبان ١٣٦٤هـ وسوق اللد يبتدىء من الاحد والاثنين، توقفنا لصلاة الفجر بإحدى الحواكير وحضر إلينا أحد (النواطير) حارس المزرعة رحب بنا وقدم لنا بطيختين وكان اسمه (ياسين)، وقد سألته: كم تبعد اللد؟ قال حوالي أربع ساعات (بالجمال) ودعناه شاكرين وكنت أول مرة أتذوق طعم البطيخ ثم واصلنا المسير وقبل صلاة الظهر كنا حول شجرة اللد في إحدى الحواكير وجدنا الوالد والقسومي والجاسر ومعهم عبد الرحمن الفالح وهو من العقيلات ويسكن مدينة اللد، كانت

احدى السيارات الكبيرة تنزل حمولتها من الحشيش للابل وصاحب الحاكورة قد جهز الماء للسقيا وأقمنا ليلتنا في شجرة اللد.

واللد من المدن الكبيرة في فلسطين وفيها سوق كبيرة تجلب إليها المواشي من الابل والخيول والأبقار والاغنام وهى ملتقى للعقيلات الذين يحضرون الأسواق في فلسطين وفيها يسكن بعض العقيلات ممن يشتغلون (سماسرة) لتجار المواشي. والسوق له تقاليد قديمة في البيع والشراء، فكل تاجر معه ابل يفرش سجادة على الأرض و يضع الأشدة والثاية وبجانبه (الدلال) السمسار. يحضر المشتري إلى الابل ويختار مايرغب في شرائه و يكون السمسار قد رافق المشتري ثم يأخذ بيده و يضعها في يد التاجر ثم تتلى عبارات (صلي على النبي) و يرد التاجر والحضور (اللهم صل عليه) اشترينا بكذا يفتح الله وإذا تمت البيعة يردد المعدية والملاحيق والرعيان أصواتاً (الله يربحه) يدفع المشتري العربون ويحضر مندوب البلدية ليتسلم رسم يسمى (الباج).

كنت في هذا اليوم أتطلع إلى التجار، هنا مجلس القسومي وابن جاسر وهنا مجلس الرميحي وهذا مجلس ابن فالح، وأمامهم ابلهم ولا تسمع إلا النداءات بالبيع والصلاة على النبي. انتهى في اليوم الأول السوق وقد باع الوالد في (طولكرم) ماجلبه، وفي اللد باع مائة رأس، ولم يبق معنا سوى ٥٣ رأساً من الابل، وقد صرف القسومي وابن جاسر ابلهم ولم يبق معهم سوى عشرة رؤوس، وعادت بقية الابل مع الخويا إلى شجرة اللد ودعانا عبد الرحمن الفالح إلى بيته، حيث تناولنا طعام الغداء مع التجار وفي هذه الاثناء دخل علينا محمد العبد الله المديفر ومعه رعيتان من

الابل وسيحضر سوق الاثنين (غدا) قال الوالد: اشتري منك الرعيتين فقال أنا موافق.

بعد خروجنا من بيت الفالح أعطاني الوالد ورقة صغيرة وفيها سعر البيع وأخذت دفتراً صغيراً كان الوالد يحتفظ به لأسجل مابيع وكان هذا أول درس لي في ممارسة الاعمال الحسابية، وبدأت أقلب الأسعار وأكتب والوالد رحمه الله يحثني على معرفة مجموع القيمة وأخذت في ذلك وقتاً، لكنه قال لي: ٢٥ جمل بسعر ١٧ جنية قيمتها ٤٢٥ جنيه أعطاني المجموع وأنا لازلت أجمع وأطرح. وهكذا بدأت التطبيق العملي لما درسته.

خرجنا إلي حيث تجمع العقيلات حول شجرة اللد، ولم يتفق الوالد مع محمد المديفر على شراء ابله واشترى القسومي والجاسر رعية، والثانية اشتراها علي الغصن الذي حضر من غزة بسعر ستة عشر جنيها للرأس.

عدنا إلى سوق اللد يوم الاثنين ولم يتصرف من الابل سوى ١٥ رأساً فبقى معنا ثمانية وثلاثون، واستأجر الوالد فهد المنيف ومعه محمد أبو يوسف، أما عبد العزيز الشقيران والرعيان فقد عادوا إلى عمان من اللد حيث رجعوا إلى القصيم وتركنا أيضاً محمد السويل لينضم إلى علي الغصن أما الجاسر والقسومي، فقد بقي معهما رعيانها وخوياهما. بعد انتهاء السوق خرجت الابل إلى شجرة اللد، ومنها تسافر إلى أسواق فلسطين الجنوبية. وعلمت أنهم سيمرون بطريقهم من اللد ــ الرملة ــ قطره ــ الطيره ــ الفالوجا ــ غزة، وقد أناب الوالد محمد أبو يوسف بأن يتولى البيع في حالة جلبها من هذه الأسواق، وودعنا الرعيان والخويا من عاد منهم إلى عمان أو الذين واصلوا رحلتهم مع الابل.

دعانا إبراهيم الدخيل في منزله باللد إلى تناول القهوة والشاي مع بقية العقيلات الموجودين في هذا السوق وقد عرفني الوالد بهم: محمد العبد العزيز الرميحي، وتربطنا به صلة رحم، يوسف البادي سمسار في أسواق غزة وبئر السبع، وخان يونس ــ محمد المديفر وعبد المحمد العيد. أما بقية العقيلات فقد سافروا إلى غزة بإحدى الحافلات، وسمعتهم يتحدثون عن دخول شهر رمضان، ربما يكون أوله يوم الأربعاء أو الخميس وعلى مادرجت عليه في هذه الرحلة يكون شهر رمضان الثلاثاء أو الأربعاء.

ودعنا إبراهيم الدخيل إلى محطة الاتوبيس في اللد المدينة كبيرة وأصحاب الحوانيت يزينون متاجرهم بالزينات ابتهاجاً بقرب حلول شهر رمضان المعظم، لقد بهرتني الزينات واللمبات الكهربائية وبعض الأوراق وقطع القماش الملونة، تعلو المتاجر وتتوسط في الطرقات. في أحد المطاعم توقفنا لتناول طعام الغداء، وكانت الموائد تتوسط المكان وعليها أغطية من القماش نظيفة وأطباق بيضاء وشوك وسكاكين وملاعق. وطلب الوالد نوعاً من الطعام لم أفهم اسمه. قال للرجل: نريد اثنين (كباب) وسلطة، حضر الرجل يحمل أطباقاً فيها الأكل والخبز، وكانت أكلة لها طعم ومذاق طيب ربما هذه هي الأكلة التي أتناولها لأول مرة.

منذ وصولنا إلى عمان كانت الأكلات عبارة عن مكرونة ــ أرز أو خضار ولحم، وبعد انتهائنا من الأكل ذهبنا إلى محطة الاتوبيس وكان يقال له في فلسطين (الباص) وهذه الكلمة انجليزية، وكلمة (الباص) معروفة عند العقيلات بأنها (جواز السفر).

كان أحد العقيلات لايسمع وقد سافر من القدس إلى عمان بإحدى السيارات وأمام الضابط الانجليزي في جسر اللنبي راح يسأله بلغته الأجنبية (باسبورت) فلم يسمعه. وطلب إليه أن يقف في أحد الأركان حتى ينهي إجراءات بقية ركاب السيارة، وعندما فرغ كرر عليه سؤاله السابق، وكان أحد الضباط العرب من الأردنيين صاح في أذنه (معاك باص) فرد قائلا: (كان قلت لي الباص) وأصبحت هذه الكلمة من الأمثال الشعبية لدى العقيلات وغيرهم.

ركبنا أحد الاتوبيسات من الموقف وكانت الأجرة يومئذ خمسة عشر قرشاً من اللد إلى غزة فسألت الوالد رحمه الله عن الطريق، قال لي: هناك طريقان إلى غزة: الأول يسير من اللد إلى يافا ــ سدود ــ المجدل ــ جباليا ــ غزة وهو طريقنا الآن، أما الثاني فهو يسير من اللد ــ الرملة ويجتمع مع طريق: يافا ــ القدس، وفي دجانيا يفترق طريق إلى الجنوب يؤدي إلى غزة، والطريق العام إلى القدس يتجه شرقاً. وتحرك الاتوبيس نحو الساعة الثانية والنصف ظهراً وخرجنا من شوارع اللد إلى حيث جنوبي يافا دون أن ندخل المدينة وبعد مسيرة ساعة وصلنا إلى محطة كبيرة للقطارات عرفت أنها سدود وقطعنا الخط الحديدي بعد أن توقفنا لوجود قطار يمر متجهاً إلى يافا. وكانت أول مرة أشاهد فيها قطاراً يجر سبع عربات محملة بالجنود.

وبدأنا سيرنا قرب شاطىء البحر المتوسط، ولم أكن قد شاهدت البحر، فرأيت أمامي زرقة شديدة ينعكس عليها أشعة الشمس، وتنبه الوالد إلى نظراتي قال هذا البحر. كنت أشاهد بعض البنايات الصغيرة المكونة من طابق واحد على شاطىء البحر، عرفت أنها مستوطنة يهودية تتبع لمنطقة (سدود) وبعد

مسافة تقارب الساعة بدأ الطريق يتعرج نحو الجنوب والبحر يبتعد عنا ووصلنا إلى قرية صغيرة دخلنا شارعها الرئيسي، وللأسف نسيت اسم هذه القرية، إنما هي قرية تتبع (قضاء) المجدل، انفرج الطريق إلى الغرب شاهدنا على البعد المدينة، وبعد قليل وصلنا إليها، توقف الاتوبيس أمام أحد (الكراجات الكبيرة) وحوله مكتب لشركة النقل، ذهبنا إلى إحدى المقاهي القريبة من الكراج وشربنا الشاي وصلينا الظهر والعصر قصرا في زاوية المقهى سمعنا صوت (زامور) منبه السيارة يدعونا إلى الحضور، فحضر الجميع من الركاب وتحرك الاتوبيس في نحو الساعة الرابعة والنصف، وقد يتساءل القارىء عن تحديد الوقت بالساعة، لقد سمعت الوالد يقول لأصحابه من العقيلات في اللد فسافر إلى غزة في (باص) الساعة اثنين ونصف وقبل أن نغادر المجدل كانت الساعة الكبيرة المعلقة على مكتب الشركة تشير إلى الرابعة والنصف.

خرجنا من شوارع المجدل من الجنوب الشرقي، فالمدينة تقع قرب البحر الأبيض المتوسط وكنت أرى سواحله وحوله أشياء لم أعرفها، سألت الوالد ما هذه؟ قال: هذه مراكب. لقد اكتسبت في هذه الرحلة معلومات ثمينة وقيمة وأصبحت أعرف منازل الشمس والقمر والنجوم والاتجاهات: الجنوب والشمال والشرق والغرب وهناك مسميات أخرى تعلمتها من العقيلات ربما لا تندرج تحت المسميات المعروفة للاتجاهات مثل: القبلة وتحديدها على ضوء البلاد الموجود فيها ـــ النسرى ـــ الهيف ـــ مطلع الشمس ـــ مغرب الشمس واتجاهات السير على ضوئها.

خرجنا من المجدل واخترقنا بعض القرى الصغيرة وأخذ الخط يعتدل باتجاه الجنوب وبطلوع إلى مرتفعات تغطيها أشجار وظهرت

بيوت مبنية بالطوب وألوانها بيضاء عرفت أنها جباليا، وتبعد عن غزة بنحو عشرين كيلو متراً، اقتربنا أكثر وكانت الأشجار كثيفة من التين ــ العنب ــ الصبار، والاتوبيس يسرع في السير، لكنه بدأ يهدىء من سرعته، لقد أقبلنا على طريق القطار وأشاهد المحطة على مسافة قريبة، توقفنا حتى مر القطار، وقد أخرج الوالد ساعته الكبيرة من جيبه ونظر إليها سألته عن الساعة قال الساعة الآن السادسة إلا عشر دقائق، ودخلنا إلى أسواق غزة وسمعت السائق يصيح بأعلى صوته قائلاً: المحطة (الجاية الشجاعية) فأمرني الوالد بالتأهب للنزول فحطتنا قادمة أمام أحد الكراجات وتوقف الاتوبيس ونزل بعض الركاب معنا في هذه المحطة ودخلنا أحد الشوارع الضيقة في (الشجاعية) وهي محطة تقع شرقي غزة فيها سوق غزة الرئيسي ويسكن فيها العقيلات.

ومدينة غزة تعتبر نقطة التقاء العقيلات، منهم المقيم فيها منذ سنوات طويلة كوكلاء للعقيلات وسماسرة في الأسواق القريبة منها وتجتمع الابل القادمة في (بيارة) أبي العبد في (قوز غزة) والقوز هو المرتفع لأن الشجاعية تقع في منخفض مابين مدينة غزة ويقال لها (فوق المدينة) في الغرب والقوز في الشرق وإذا أراد الذاهب إلى المدينة أو القوز يأخذ الطريق طلوعاً وبيارة أبي العبد تقع في بسيط من الأرض الطينية وهي مزرعة كبيرة وقد حفر بها بئر ارتوازي وبناء حوله حوض كبير تسقي منه الابل مقابل جعل من المال على كل رأس، ويبيع الأعلاف للمواشي وله صداقات مع العقيلات وهو من عائلة (بسيسو) من أهل غزة وتسكن محلة الشجاعية.

وله أيضاً بيارة صغيرة (مزرعة صغيرة) فيها أشجار التين والعنب والرمان تقع شرقي محلة الشجاعية وفيها طاحونة للدقيق

وبئر وحوش كبير على شكل (الخان) فيه غرف كثيرة وأحواش لتربية الخيول يستأجره العقيلات والخويا والرعيان ويربطون به الخيول القادمة من الجزيرة العربية للتربية وتسفيرها إلى مصر بعد ذلك.

الاقامة في غزة

مدينة غزة من الأماكن التي يفضل العقيلات الاقامة فيها فهي تتوسط الأسواق الجنوبية لفلسطين مثل أسواق: الفالوجا ــ بئر السبع ــ خان يونس ــ رفح وهي أيضاً قريبة من الحدود المصرية ويسكنها الكثير من العقيلات ولهم فيها أعقاب ومن الذين يسكنونها عندما حضرنا إلى غزة: عبد العزيز العثمان العبيد ــ محمد الرميحي ــ محمد العبد العزيز الجاسر ــ سليمان أبا الخيل ــ فهد الفالح ــ محمد أبوزيد ــ إبراهيم العبد العزيز الجربوع ــ عبد الله المحمد الشبعان ــ إبراهيم البادي ــ يوسف البادي. أولاد عبد العزيز القفيدي، ومن الشبان الذين من أقراني: عبد العزيز البراهيم الجربوع ــ محمد الصالح القفيدي، كنت ألهو معهم وعندما امتدت إقامتي ذهبت إلى مدرسة غزة مع عبد العزيز الجربوع ومحمد القفيدي وكان مدير المدرسة آنذاك من الاخوة الفلسطينيين وهو علي هاشم رشيد.

وأول كتاب مطبوع اخذته من المدرسة كان كتاب الجغرافيا الذي وجدت فيه تحديداً لبلادي لم أكن أعرفه من قبل من ناحية الموقع وعدد السكان وتعرفت أثناء وجودي في غزة على عبد العزيز الزعيم وكنا نلهو نحن الأربعة، وقد تعلمنا ركوب الدراجات.

وكان السكن في محلة الشجاعية. وبيتنا يقع بجوار بيت عبد العزيز الجاسر ــ محمد الرميحي ــ إبراهيم البادي وبيت فائق

بسيسو بيت مكون من غرفتين كبيرتين وصالة ومطبخ وحمام وحوش تظلله كرمة كبيرة وكان هو مجلسنا في الصيف.

وكان الوالد يتركني في المدينة ويذهب إلى حيث أسواق السبع ـ خان يونس ـ دير البلح ـ ويعود في المساء وأكون قد عدت من المدرسة وجهزت بعض الطعام والفاكهة.

لقد تعلمت الاعتماد على النفس ـ من غسل الثياب إلى الطبخ وعمل القهوة والشاي، وكان أثناء غياب الوالد أحضر مع عبد العزيز الجربوع إلى البيت ونعد طعام الغداء وهو غالباً مايتكون من المكرونة باللحم أو بعض الخضار مع العيش وفي بعض الأحيان كنت أذهب إلى بيت إبراهيم الجربوع وهو يسكن إلى الشرق من سوق غزة.

كان الوالد يتركني أيام الاثنين والأربعاء والخميس، أما يوم الجمعة فهو سوق غزة الرئيسي وفي هذا اليوم لابد أن نكون في السوق حول الابل.

وفي ليالي رمضان بفلسطين تقام الصلوات للتراويح وكنت أذهب إلى المسجد وقد أعجبني صوت المرحوم الشيخ عمر بسيسو شيخ الجامع وقاضي غزة وهو لايبعد عن بيتنا سوى أمتار قليلة، وكان للوالد صديق من أهل غزة يسمى أبو عطا له متجر يبيع الأقمشة والمنسوجات وصاحب بقالة اسمه عم عبد القادر كنت أشتري منها لوازم البيت وإذا أردت الفاكهة أو الخضروات فلها سوق مستقل وكنت أرى أكوام البرتقال في الشتاء واشتريت عشرين برتقالة بقرش واحد، أما الموز فالكيلو بقرشين والعنب بقرش ونصف وسلة التين البحري تزن خمسة كيلو بخمسة عشر

قرشاً، وحمل جمل البطيخ بأربعين قرشاً، فيها عدد خمسة عشر بطيخة لايقل وزن الواحدة عن خمسة كيلو جرامات، وكان كيلو اللحم المشفى بدون عظم بخمسة وعشرين قرشاً، أما الخضار فلا يكلف أكثر من القرش للكيلو، تلك كانت المعيشة في تلك الفترة.

أما سوقع البيت فهو قريب من شارع الشجاعية العام المؤدي إلى بئر السبع ومحطة القطار تقع مابين مرتفع المدينة التي تتركز فيها البنوك والمحلات التجارية الكبيرة والمطاعم والمقاهي ومابين محلة الشجاعية.

عشت في مدينة غزة فترة من الوقت تعرفت فيها على شوارع المدينة والمقاهي والمطاعم ودور السينما التي لم أدخلها في حياتي، وكنت ورفيق صباي عبد العزيز الزعيم نخرج يوم الأحد فهو العطلة الرسمية للمحلات التجارية ونذهب إلى السينما واسمها (سينما السامر) ولأول مرة أشاهد الأفلام العربية، وكانت مصر تصدر جريدة مصرية مصورة تسمى (جريدة مصر الناطقة) توزع على البلاد العربية وكنت حريصاً على متابعة هذه الجريدة فقد رأيت لأول مرة جلالة المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز وهو يلقي أول خطاب في هيئة الأمم المتحدة وشاهدت زيارة جلالة المغفور له الملك سعود إلى لندن وكنت فخوراً وأنا أسمع الصالة تضج بالتصفيق وهى تستقبل كلمة الملك فيصل أو وهى تتابع زيارة الملك سعود.

فكنت أحرص على يوم الأحد هذا حتى أتمكن من رؤية هذه الجريدة الناطقة وأذكر أننى حرمت من متابعة هذه الجريدة طوال أسبوع نظراً لأنني كنت قد استأجرت دراجة أنا وعبد

العزيز الجربوع فوقعت منها في حفرة أحدثت أثراً في رجلي ومنعتني من المسير حتى جاء إلي عبد العزيز الزعيم وهو يحمل إلي مجلة عربية لا أعرف اسمها الآن لكنها مجلة عربية مصورة فيها صور للملك فيصل وهو يوقع ميثاق الأمم المتحدة وفيها صور للرئيس أيزنهاور وهو يدخل مدينة (اوكيناوا) في اليابان عندما احتلها الحلفاء كنت سعيداً بقراءة هذه المجلة لدرجة أنني احتفظت بها لأشهر عديدة.

أما كتاب الجغرافيا فقد حفظته عن ظهر قلب فقد عرفني بحدود بلادي وتعداد سكانها ومواردها، لقد بقيت آثار هذه الذكريات عالقة في ذهني إلى الآن: مناظر البساتين والبيارات وأشجار التين والعنب والزيتون على كثبان الرمال غربي غزة، أذكر أنني وصديقي الزعيم قد ذهبنا إلى البحر مستقلين الاتوبيس من المحطة إلى قرب البحر، وكان معنا ابن عمه يدعى رشيد وبقينا على الشاطى من الصباح حتى قرب العصر وقد نزل إلى البحر رشيد وكاد أن يغرق لولا رجال الانقاذ ومن يومها حرم علي الوالد الذهاب إلى البحر.

أما عن مجتمع العقيلات في غزة فكانوا يذهبون إلى الأسواق ثم يعودون في المساء وبعد صلاة المغرب نذهب إلى بيت عبد العزيز الزنيدي حيث يجتمع العقيلات يتسامرون إلى مابعد منتصف الليل وكنت معهم أرى وأسمع مايدور من أحاديث تبتدىء بأسواق الابل والبيع والشراء وتنتهي بمشاجرة بين إبراهيم البادي وأخيه يوسف فكل واحد منهما كان يميل إلى قائد من قواد الحرب فهذا يميل إلى رومل القائد الألماني وهذا يميل إلى منتجومري القائد البريطاني حتى يتدخل أحد العقيلات و يفض هذه المشاجرة بحديث آخر.

أذكر أنه كان للمرحوم عبد العزيز الزنيدي وهو من أهل الزلفي ابن اسمه سعود قد تشاجر مع أحد أقرانه من أبناء غزة فشج رأسه فاشتكى إلى قسم البوليس في الشجاعية وحضر القائد إلى بيت الزنيدي وكنا موجودين وسعود قد هرب فدخل القائد وعزم عليه الحاضرون بتناول القهوة والشاي فرحب وجلس معنا يسأل عن أحوال البيع والشراء وعن وجود العقيلات وكان اسمه (الليفتنانت جيمر) يجيد التحدث بالعربية بطلاقة، وبادر الوالد وهو أكثر المتحدثين إليه: كيف تجلسون في هذه البلاد وبلادكم سيكون لها شأن عظيم (فقد بدأ البترول يتدفق) فرد عليه الوالد نحن الآن في بيعنا وشرائنا وقد تعودنا على هذه الأعمال منذ فترة طويلة فهز رأسه قائلاً: أنا أعرف العقيلات وهم أهل الخيل في مصر فقد كنت أعمل في مصر قبل حضوري إلى فلسطين.

أمر القائد الانجليزي بأن يحضر والد الشاب الفلسطيني إلى حيث نجلس وعمل صلح عرب فيما بين الزنيدي ووالد الشاب وانتهى هذا الموضوع إلى خير.

ومن الأشياء التي لازالت عالقة في ذهني منظر رجال البوليس وهم يجوبون شوارع غزة بموسيقاهم وطريقة سيرهم فكنت أرقب يوم السبت وأذهب إلى دكان أبي راشد الزعيم في الشارع العام حتى تقبل (التشريفة) هكذا عرفت اسمها.

ومن الأشياء التي لفتت نظري آنذاك أثناء موسم الحج خروج الناس بطبولهم وموسيقاهم يزفون هذا الحاج أو هذه الحاجة حتى تصل إلى محطة القطار بغزة فكنت أتابع هذه المسيرات حتى يركبون القطار متوجهين إلى السويس لركوب الباخرة.

كنت أتابع سيدة عجوز تحمل عصا وتعلق في عنقها مناديل وسبح تجوب الشوارع وتقول كلاماً لم أستطع تبينه، إلا بعد أن سألت صديقي وإذا هي المسئولة في هذه المحلة إذا تاه صبي أو ضلت ضالة تعلن بصوتها عن المفقود و يتجمع حولها الصبية وأنا معهم حتى استطعت بعد فترة أن أعرف ماذا تقول.

ومن العادات التي عرفتها عادة الطهور فالولد يطهر بعد أن يبلغ سن الثانية عشرة تجد الز ينات معلقة والاهاز يج والغناء.

أما عادة الزواج فإن الخاطب يحضر أباه إلى أهل الزوجة و يطلب يدها فإذا تمت الموافقة يطلب أهل العروس مهراً يعادل أوقية أو أوقية ونصف من الجنيهات، و يتم الوزن أمام جمع من عائلة العر يس والعروس، ثم يقول الكبير من أهل العر يس لقد وفينا حق ابنتكم فماذا يكون حقنا وهنا يقوم والد العر يس بفرش منديل أبيض فيقوم والد العروس بوضع نقود فيه ثم تتابع بقية العائلة بوضع النقود ويخرج العر يس وقد جمع أكثر مما دفعه مهراً لأهل العروس.

ثم تخرج زفة للعر يس من بيت عروسه إلى بيته ويحدد كتب الكتاب ثم تأتي ليلة (الحنا) فالعروس والعر يس يضعان الحناء في أيديهما وأرجلهما، تلك عادات وتقاليد عرفتها، فالعادات والتقاليد العربية لازال الكثير من البيوتات العر بية متمسكة بها، منهم المحافظ الذي لا تظهر نساؤه سافرات، ومنهم الذين جرفتهم المدنية فنجد الخليط من المحجبات والسافرات. كنت في أول الأمر يصيبني الخجل من رؤ ية البنت السافرة أو التي تقود سيارة و بعد فترة ألفت هذه المناظر.

أذكر أنني كنت أركب الاتوبيس إلى فوق المدينة فلم أجد كرسياً خالياً إلا بجوار إحدى البنات فأنفت الجلوس لكنها أشارت إلى بالجلوس وترددت ولم ينقذني من ذلك الخجل إلا وقوفها ونزولها بإحدى المحطات.

تلك أشياء أردت أن يشاركني القارىء الكريم في الذكريات: شاب خرج إلى الحياة فقد عاش تقاليد وعادات مجتمع قبلي ثم يأتي إلى بلاد تختلف فيها العادات والتقاليد ، ثم خاض تجربة طرق المعيشة والاختلاط والمعرفة بشتى مجالاتها وكنت أول الأمر أستنكر ذلك، لكنني مع مرور الوقت ألفت هذه الحياة.

مر على وجودنا في غزة أكثر من أربعة شهور والوالد في بيعه وشرائه وأنا أذاكر وأدرس وأترقب حتى جاء اليوم الذي فاجأني الوالد به بأننا سوف نسافر إلى عمان، قال هذا الخبر وكنا مع مجموعة من العقيلات في بيارة أبي العبد، نرقب وصول ابن عبد الله الدبيخي وعلي الغصن القادمين من عمان، وصلت الابل ووجدت معها محمد الدبيخي وابراهيم الغصن وهما من أقراني، فدخلنا إلى غزة وأمضيت أسبوعاً مع محمد الدبيخي وإبراهيم الغصن ولهونا كثيراً وعرفتها على السينما والبحر والأماكن التي لم يكتشفاها بعد وكانت فترة سعيدة أمضيناها سوياً وتفرقنا: فابراهيم الغصن سافر والده إلى مصر، ومحمد الدبيخي عاد إلى عمان وبقيت وحيداً مع الوالد وعبد الله الدبيخي رحمها الله، وكنت أكتب له الرسائل إلى ابنه عثمان في العراق وكانت له طريقة في الرسائل أكتب له رسالة وهو يملي علي وإذا كتبت سطراً قال (اقره) يعني أعيد قراءة ما كتبت.

تحدد سفرنا إلى عمان بعد عيد الأضحى، فركبنا الاتوبيس من محطة غزة متخذين طريق غزة ـ الفالوجا ـ بيت دجن ـ القدس. طوال الطريق كان الاتوبيس يتوقف أمام نقاط التفتيش وبوابات يقف عليها جنود انجليز، فيدخل الضابط المسئول إلى الاتوبيس ويطلع على هويات الركاب حتى إذا كان إلى الوالد أبرز معه ورقة مكتوب فيها اسمه واسمي يعيدها مع كلمة (شكراً)، وتكرر هذا التوقف للمرة الخامسة وقادني الفضول إلى معرفة مابهذه الورقة فتناولتها من الوالد وكان حريصاً على حفظها في جيبه وقرأتها وإذا مكتوب فيها (باسم جلالة الملك جورج الخامس ملك بريطانيا الحاكم العام لامارة شرقى الأردن) يصرح للسيد/مسلم إبراهيم الفرج وابنه إبراهيم ـ من رعايا جلالة الملك عبد العزيز بن سعود بالتجول داخل فلسطين وامارة شرقي الاردن مع الرجاء من ممثلي جلالته بتسهيل مروره. ومكتوب بالنص الانجليزي والتوقيع ـ جلوب باشا ـ الحاكم العام).

بعد أن قرأتها تناولها الوالد في رفق وأعادها في حزام كبير كان يضعه على بطنه ووصلنا إلى مشارف مدينة القدس، وكانت التماثيل الكبيرة على رؤس الجبال وقال لي الوالد هذه صورة مريم وابنها. وكانت الشوارع فسيحة والعربات كثيرة، وأذكر أن الوالد نهرني وأنا اتطلع من شباك الاتوبيس أن لا أظهر رأسي أو يدي من الشباك فقد كان أحد العقيلات وهو عبد الرحمن الشايع يركب الاتوبيس وأظهر يده وكانت سيارة قادمة واصطدمت بالسيارة التي يركبها وفقد يده.

وصلنا إلى باب العمود في القدس وبه يتوقف الاتوبيس، في هذه المحطة نزلنا أمام مكتب للشركة صاحبة الاتوبيس

ودخلنا إلى أحد الشوارع التجارية الكبرى وبدأ الوالد يعرفني على معالم المدينة، آخر هذا الشارع يؤدي إلى القدس الجديدة وهذا باب العمود وهناك بيت المقدس وكانت الساعة قد جاوزت الواحدة، وأخذ الوالد يسرع الخطا إلى حيث أحد المحلات التجارية فتوقفنا أمامه وكان مكتوب عليه (شريف وعلمي) صراف، دخلنا المحل وتعانق الوالد مع أحد أصحاب المحل وبادلنا الرجل الآخر بتحية، وفك الوالد حزامه وناوله صاحب المتجر وأخذ منه عشرة جنيهات وأمام المحل جاء شخص ثالث أدى التحية وسأله (علمي) إن كان هناك حجرة بالفندق خالية رحب بنا الرجل وذهبنا معه إلى الفندق وهو مكون من أربعة طوابق ودخلنا إلى بهو الفندق وأمام الاستعلامات سلمه الوالد ورقة الهوية وأعطانا ورقة مكتوبة أخذتها من الوالد وقرأتها: اسم الفندق (فندق باب العمود) دخلنا إلى إحدى الغرف في الطابق الثاني وتوضأنا وتركنا الفندق إلى المسجد الأقصى للزيارة.

دخلنا المسجد الأقصى من البوابة الشرقية إلى صحن المسجد فأدينا تحية المسجد وقمنا بزيارة قبة الصخرة وسمعنا آذان العصر، فعدنا واشتركنا مع المصلين لصلاة العصر وبعد أن فرغنا خرجنا من بوابة المسجد الغربية على شوارع ضيقة عرفت أن اسمها حارة اليهود ثم دلفنا إلى مبنى مرتفع، عرفني الوالد بأنه كنيسة يؤمها النصارى وأن هذه الكنيسة كان قد زارها الخليفة عمر بن الخطاب عند فتح القدس.

دخلنا إلى أحد المطاعم وتناولنا طعام الغداء وهو عبارة عن لحم مشوي، وخضار وخبز وسلطة، وفي إحدى المقاهي جلسنا وشربنا الشاي الاخضر، وبينما نحن نهم بترك المقهى توقف أمام

الوالد شيخ معمم يقول بلهجة غريبة (مسكين يارجل سوف تخسر بضاعتك وتفارق من تحب) هكذا قال الرجل بدون مقدمات لكنني سمعت الوالد يقول: كذب المنجمون ولو صدقوا عرفت أن هذا الشيخ (مغربي) يقرأ الطالع.

منذ فارقنا المقهى والوالد يفكر فيما قاله الشيخ وهو يردد حسبي الله ونعم الوكيل ويتمتم بآيات قرآنية.

عدنا إلى التجوال في المدينة لكن الوالد عاد إلى محل (شريف وعلمي) وأخذ الحزام منه قائلا: سوف نغادر إلى عمان، ماهذه العجلة يابو إبراهيم، هكذا بادره الرجل قال هذا أمر الله، ذهبنا إلى الفندق وناوله الحساب، وتوجهنا إلى باب العمود وفي إحدى سيارات الأجرة الصغيرة ركبنا مع السائق وانتظرنا حتى اكتمل العدد وغادرنا القدس في نحو الساعة الخامسة والشمس لازالت ساطعة، فهبطنا من جبل القدس وكان الطريق منحدراً إلى حيث الغور (مجرى نهر الأردن) وصلنا إلى مدينة أريحا واتجهنا إلى جسر اللنبي، وعند نقطة العبور توقفنا أمام البوابة ونزل جميع الركاب سائرين على الأقدام إلى نهاية الكوبري (الجسر)وأمام نقطة التفتيش الاردنية أظهر الوالد الهوية فختمت وتوقفنا بانتظار انتهاء زملاء الرحلة ثم ركبنا السيارة وكانت الشمس قد غربت، وأقبلنا علي بلد ورأينا أنواراً تلوح فعرفت أنها (الشونة) شونة بني عدوان فتوقفنا قليلا، وكان الوالد لازال يفكر وأرى قسمات وجهه تنم عن شيء ما، والسيارة بدأت في طلوع جبال الاردن هاهي مدينة السلط ــ صويلح وأخيراً عمان، وفي المحطة استقلينا (التاكسي) إلى حيث رأس العين وبيوت العقيلات فذهبنا إلى بيت حمد السعيد في عمان.

استقبلنا حمد السعيد مرحباً وفي إحدى الغرف وضعنا امتعتنا ودخلنا إلى المجلس وعلى ضوء النار بدأ الوالد يقص على حمد قصة (النبوءة) والمغربي فرد عليه لا تأخذ في بالك، كل هذه أوهام. بتنا ليلتنا وفي الصباح خرجنا إلى رأس العين وقابلنا العقيلات الموجودين: محمد الفايز ــ منصور الجربوع ــ فهد القسومي ــ صالح السلومي ــ سليمان الصبيحي، واستأجرنا أحد البيوت، وفي المساء كان الاجتماع في بيت سليمان الصبيحي وحضر منصور الجربوع وكان معه يومئذ ابنه سليمان واشترى الوالد رعيتين من الأبل من حمد السعيد بسعر ثلاثة وعشرين جنيها للرأس واشترى بعض الابل من السوق وتجهزت الابل إلى النزول إلى الغور (للمشتى).



الفصل الرابع

التشريق

مدينة غزة هى نهاية المطاف بالنسبة للعقيلات الذين صرفوا ابلهم، يعودون إلى عمان و يتجهزون، قوافل منهم تذهب إلى الوطن على الركائب، لا يحملون شيئاً، ومنهم من يخرج بحملة من أنواع البضائع المختلفة، و يسمى التشريق أي يتجهوا إلى الشرق حيث المملكة العربية السعودية.

ومنهم من يتجه إلى العراق بالسيارات بقصد شراء الابل والمواشي والخيل من مدن العراق المختلفة ثم يعود سيرته الأولى إلى فلسطين.

ومنهم من يشتري من العراق بضائع مختلفة ومواد غذائية و يعود إلى الوطن يصرفها ثم يعود بعد ذلك إلى شراء الابل من أسواق القصيم.

أما التجار الذين لم يوفقهم الحظ في نهاية مطافهم كما حدث لنا فإنه يعود إلى عمان و يشتري الابل من أسواق عمان لتسو يقها في أسواق فلسطين، أو أسواق مصر، وإذا ماحل الشتاء عادوا إلى عمان واشتروا الابل ونزلوا بها إلى الغور.

وتعتبر هذه رحلة أخرى يقضي فصل الشتاء في (غور الاردن) حيث الدفء، والكلأ، وإذا ماحل الصيف بدأت أسواق فلسطين.

قلت إننا عدنا إلى عمان في يوم السبت ١٨ ذو الحجة ١٣٦٤هـ/الموافق ٢٤ نوفمبر ١٩٤٥م، ومن أسواقه اشترى الوالد رعيتين من حمد المحمد السعيد، وكان قادماً بها من أسواق العراق، واشترى بعض الابل منْ أسواق عمان استعداداً للنزول بها إلى الغور وقضاء الشتاء فيه حتى حلول أسواق فلسطين.

وقد أقمنا في عمان طوال شهر الحجة ١٣٦٤هـ، ونزلنا إلى الغور (وادي الأردن) يوم الأربعاء ٧ محرم ١٣٦٥هـ.

الغور

الغور هو مجرى وادي نهر الأردن تحيط به جبال القدس من الغرب، وجبال الأردن(١) من الشرق، حيث جرى فيه ثلاثة أنهار هي: الحصباني، اللدان، بانياس، وتصب في بحيرة الحولة حيث المستنقعات التي تنبت فيها أشجار البردي ثم يهبط النهر إلى الجنوب بانحدار شديد حتى يصل إلى بحيرة طبرية التي ينخفض سطحها عن مستوى البحر نحو ٦٨٢ قدماً ثم يصب في بحيرة (لوط) وتنخفض عن سطح الأرض بنحو ١٢٩٢ قدماً وتبلغ أعمق نقطة في بحيرة لوط إلى ٢٦٠٠ قدم عن سطح الأرض وهذا الوادي يعرف باسم الغور.

وقد عرفه ياقوت بغور الأردن وهو وادي مسيرة ثلاثة أيام وعرض أقل من نصف يوم فيه نهر الاردن يشقه في طوله من أوله وهو بحيرة طبرية وآخره البحر الميت أو بحيرة لوط.

ويقول عنه الرحالة ابن بطوطه(٢) سافرت بقصد اللاذقية فمررت بالغور وهو واد بين تلال به قبر أبي عبيدة الجراح رضي الله عنه.

ومهما قيل عنه قديماً فقد شتينا في الغور أكثر من أربعة أشهر بداية من أول الشتاء حتى أول الصيف أول وصولنا إليه من عمان. كان الجو بارداً وكلما هبطنا إلى بطن الوادي ارتفعت

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٢ ص ٥٥٠.

(٢) تحفة النظار في غرائب الأمصار جـ ١ ص ٨٠.

الحرارة ونزعنا ماكنا نلبسه من الملابس الشتوية وفي الشتاء كنا نرى الجبال من غربنا وشرقنا وقد تغطت بالثلوج ووصلت درجة الحرارة فيها إلى ٦ درجات تحت الصفر بينما درجة الحرارة في الغور تصل إلى ٢٥ درجة.

وقد تعددت الروايات حول اسم الغور وقد أطلق عليه البعض وادي جهنم وتحضرني قصة كان الوالد يرويها يقول: كان أحد العقيلات قد أصيب بمس من الجن وكنا مدعوين لدى أحد العقيلات في مدينة بريدة ــ فأصابه المس وحاولت ومعي بعض الرفاق من أن نتعرف على مابه فبدأنا نتحدث معه قال (الجنى) أو الجنية قد داخلته في إحدى قرى فلسطين الشمالية وحاول أحد الرفقاء قراءة القرآن أو الاستعانة بأحد ممن يعرفون مايقال في هذه الحالة وعندما نطقنا باسم الله وتلونا القرآن الكريم وإذا المس يتكلم قائلا أعطوني فرصة للخروج.

يقول الوالد سألته (الجنية) كم يستغرق ذهابك إلى مكانك في فلسطين قال: لا أكثر من خمس دقائق إلا إذا اعترض طريقي أحد (بوادي جهنم) فقد يستغرق أكثر من ذلك فأردت أن أعرف ماهو وادي جهنم قالت (الغور) أليس فيه شجر يعرف باسم شجر الزقوم.

لازلت أذكر هذه القصة حتى أنني عندما وصلنا الغور سألت الوالد عن شجر الزقوم فعرفني بها: أشجار خضراء فيها شوك كثير لاتقربها الابل.

الجلس (١) الغليظ من الأرض، والجلس علم لكلماارتفع

---

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ٢ ص ١٥٢.

من الغور، قال الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا خالد بن النضر القرشي قال حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري حدثنا كثير ابن عبد الرحمن بن جعفر بن عبد الله بن كثير بن عمرو بن عون المزني عن أبيه عن جده بلال بن الحارث المزني قال خرجنا مع رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم في بعض أسفاره فخرج لقضاء حاجته وكان إذا خرج يبعد فأتيته بإدواة من ماء فانطلق.

فسمعت عنده خصومة رجالاً ولغطا ولم أسمع مثله فقال بلال فقلت نعم قال أمعك ماء؟ قلت نعم قال أصبت فأخذه مني وتوضأ.

قلت يارسول الله سمعت عندك خصومه ولغطاً ولم أسمع أحداً من ألسنتهم قال اختصم عندي الجن المسلمون والجن المشركون وسألوني أن أسكنهم فأسكنت المشركين الغور وأسكنت المسلمين (الجلس) قال عبد الله بن كثير قلت لكثير ما الجلس وما الغور؟ قال الجلس القرى والغور مابين الجبال والبحر قال أعرابي:

وكنت امرأ بالغور مني زمانه
وبالجلس أخرى ماتفيد ولا تبدي

فطورا أكر الطرف نحو تهامة
وطورا أكر الطرف سوقا إلى نجد

ولعل هذا القول يؤكد الرواية التي ذكرتها قبل حول الغور والجن، وعودا إلى الرحلة.

جهز العقيلات ابلهم ونزلوا إلى الغور للمشتى ـــ كان معنا رعية اشتراها الوالد واشترى بعض الجمال من سوق عمان.

كان مقاماً في مكان يعرف الآن (بالنعيرات) وفيه حدثت موقعة الكرامة فيما بعد بين الفدائيين الفلسطينيين واليهود وهو يبعد حوالي عشرون كيلو مترا إلى الشمال من مدينة الشونة وإلى الغرب من مصب نهر الزرقاء إلى الغور في الضفة الشرقية لنهر الأردن.

كانت المجموعة تتكون من شراعنا وشراع إبراهيم المطوع وعبد الرحمن الزايدي وعبد الله اللهيب وعبد الله العثمان الدبيخي، ومنصور الجربوع.

شراعنا كان يضم محمد أبو يوسف مسئول عن الأكل وصالح العقل مسئول عن القهوة والشاي ومعنا فهد المنيف من الخويا والرعيان عواد الشمري ومعه ملحاق عبيد الله شمري أيضاً.

أما شراع إبراهيم المطوع فيضم محمد الهبوب وإبراهيم القضية وراعياً وملحاقاً وسليمان الزايدي قهوجياً وشراع عبد الرحمن الزايدي يضم مسؤولاً عن الأكل وقهوجياً ومعه من الخويا إبراهيم الزومان، وراعياً وعبد العزيز الزومان وملحاقاً.

شراع عبد الله اللهيب يضم مسؤولاً عن الأكل: عبد الله السليمان الغيث، وقهوجياً واثنين من الرعيان والملاحين.

شراع عبد الله العثمان الدبيخي يضم : عبد الله الدبيخي، وطباخاً وقهوجياً وراعياً وملحاقاً وقد نسيت بعض الأسماء من الخويا الذين كانوا يرافقونه.

امتدت إقامتنا في شرقي نهر الاردن أكثر من شهرين وكان المطر قليلاً خلال تلك الفترة والأرض قليلة المراعي مما اضطررنا إلى البحث في الضفة الغربية عن المراعي وهكذا تم عبورنا إلى الضفة الغربية.

وهنا أقمنا مابين الفارعة وأريحا وقد انضم إلينا حمد المحمد العبيد ومعه رعية من الابل وابراهيم العبد العزيز الجربوع، وعبد الله العبد العزيز العيد.

وفي موقعنا الجديد في الضفة الغربية كانت المراعي جيدة والجو قد بدأ يميل إلى البرودة حيث حل فصل الشتاء.

العواصف

جاء فصل الشتاء يحمل عواصف لم يعرفها أهل الغور، هبت علينا عاصفة شديدة وحل البرد على غير العادة ولم يكن موجودا من التجار سوى أبنائهم والخويا. وقد اقتلعت العاصفة الخيام وشطرت الكثير منها إلى نصفين وبقينا في العراء إلا من أغطية جمعناها من هنا وهناك، ونزلت الامطار لمدة أربعة أيام ولم يبق من الخيام مايقينا من المطر، سوى بيت من الشعر خاص بعبد الله اللهيب اجتمعنا به وفي ذراه اتقاء للأمطار واخذت الثلوج تتساقط على جبال الأردن وجبال القدس، وكان البرد في الغور قاسياً وليس لدينا مايحمينا من هذا البرد الذي لم نتوقعه فحاول البعض الذهاب إلى أريحا والحصول على بطاطين وأغطية، وكان الطريق إلى القدس وعمان قد توقف، فقد ارتفعت مياه نهر الاردن بدرجة غطت معها الأشجار التي حوله، فاجتمعنا نتدارس الأمر، أكثرنا من الشباب الذي فوجيء بما لايستطيع معه التفكير في شيء.

بادرني أبو يوسف بقوله سأسافر إلى عمان، رد عليه الجميع كيف تذهب إلى عمان وطرق المواصلات مقطوعة، ودرجة الحرارة قد وصلت إلى ٢٠ درجة تحت الصفر (الشريعة) نهر الأردن غطى الأشجار لاتستطيع تحديد مجراها الاصلي، كيف السبيل إلى عبور الشريعة هكذا قلت وشاركني في قولي حمد العبيد وعبد الله العبيد وعبد الله الغيث وبقية الخويا. رد علينا خلها على الله.

إن مجرد التفكير في الذهاب إلى عمان لهو ضرب من الجنون، لكنه لم يترك لنا فرصة للتفكير، فتركنا في حيرة وليس عليه من الملابس إلا القليل، وغاب عن عيوننا وانقطعت أخباره يومين أو ثلاثة ونحن نحاول أن نجد وسيلة أخرى، تقينا هذا البرد القارس الذي لم يعتده سكان الغور منذ سنوات طويلة، هكذا قال لنا الشيخ عبد الفتاح من قبيلة بني صخر الذي بادر إلى نجدتنا بأحد البيوت الكبيرة نصبناها وبعض الأغطية والمواد الغذائية التي دمرها المطر، ولم يبق لدينا القوت اليومي وبذهاب أبي يوسف أصبحت مسئولا عن إعاشة عشرة أفراد، فكان علي أن أقوم بعمل (الخبز) والطبخ ومكثت أصحو من نومي قبل صلاة الفجر وأحضر الدقيق وأعجنه بالماء وأتركه وأجهز القهوة والشاي ثم أعود إلى تجهيز العجين وأوقد نار الصاج وأول مرة فشلت في صنع الخبز، لكن الحاجة أم الاختراع وتعلمت من عبد الله الغيث صناعة الخبز وإعداد الطعام للخويا والرعيان لمدة عشرة أيام هى غياب أبي يوسف عنا.

وبعد عشرة أيام عاد أبو يوسف على سيارة محملة بالشرع والمواد الغذائية وبقدر ماكانت فرحتنا بما أحضره من نجدة نحن في أشد الحاجة إليها كان سؤالنا له كيف نجا من هذا الموت المحقق.

بعد أن بنينا الخيام طلبنا إليه أن يقص علينا رحلته فيقول: بعد أن تركتكم وقفت أمام الشريعة متردداً كيف لم أحضر بعض الملابس لتقيني هذا البرد القارس، لكني سألت نفسي، وإذا كان معي ملابس ثقيلة فكيف أعبر مع هذه الأمواج المتلاطمة؟ أشجار تقذفها المياه من هنا وهناك مواشي أبقار وأغنام جرفتها المياه، بدأت ألتمس طريقي في أحد المنخفضات

أعرف أن معبر النهر إلى الجنوب من بيوت (النصيرات) فقد ترددت معه كثيراً (سميت بالله) وقفزت إلى الماء وأخذت دوامات تقذف بي يميناً وشمالاً أخذتني المياه ولم أخرج إلا قرب جسر اللنبي (المسافة بين بيوت النصيرات وجسر اللنبي تبعد حوالي خمسة كيلومترات)، ارتميت على الشاطيء الشرقي حوالي الساعة وأنا أحس أن رجلي لاتحملان جسدي، وبعد أن استرحت قليلاً مشيت باتجاه (شونة بني عدوان) وقبل أن أصل إليها وجدت بيوت بني صخر. دخلت إلى أحد البيوت وارتميت على الأرض لا أعرف ماذا حدث، أفقت على صوت صاحب البيت وهو يقول لي الحمد لله على السلامة، وجدتني ألبس ملابس ثقيلة (وفروة) لم أكن ألبس هذه الملابس من قبل، قص علي الرجل أنه أغمى علي من شدة البرد وقام هو وأبناؤه بنزع ثيابي المبتلة واستبدلوها بملابس ثقيلة وانني لم أفق من نومي هذا إلا في اليوم التالي.

قصصت عليه قصتي وكان الرجل كريماً فأعطاني ملابس ثقيلة وحذاء واستأذنته في مواصلة السفر فأشار علي أن أبقى فان طريق السيارات القادمة من القدس إلى عمان أو الذاهبة من عمان إلى الغور قد توقفت لكنني لم أسمع نصيحته وتوكلت على الله باتجاه الشونة، لكنني وجدت المدينة شبه خالية فاتخذت طريق السيارات طلوعاً إلى جبل الاردن، وأخذ الطريق في منعطفات تدور يميناً ويساراً وأنا (عجل) على عجل من أمري، حاولت اتخاذ طريق أقصر أختصر منها هذه المنعطفات وأنا أعرف هذه الجبال، قابلتني عاصفة من الثلج، بدأت رجلاي لاتقويان على حملي، فكنت أحس وكأنني أحرك كتلا قوية من الاحجار تشدني إلى الأرض.

حاولت أن أشق طريقي : الثلج سميك في بعض الاراضي لكنه رخو في بعض المنخفضات، مضى علي قسم كبير من الليل وأنا أتحسس طريقي إلى السلط، أسمع حفيف العاصفة وأصوات المياه تنحدر إلى الوديان.

زادت حدة العاصفة، وجدت أمامي أحد هياكل السيارات المحطمة في أحد الشعاب. حاولت أن أدخل في داخلها لاحتمي من العاصفة النافذة مغلقة، شققت بيدي الثلج وتمكنت من فتح كوة، دخلت إلى داخل السيارة وأنا أرتعش من البرد، بحثت عن أحجار محاولاً إحداث شرارة توقد النار، قطعت قطعة من قماش ثوبي ووضعتها بين الاحجار ولكن القماش مبلل، هيهات.

فقدت الأمل في إيقاد النار، وخشيت أن يقفل الثلج منافذ السيارة وأموت داخلها، خرجت ثانية إلى حيث مصيري الذي اخترته مستعيناً بالله، نزلت من أحد المنحنيات أجري فانقلبت على ظهري لكن الله سلم، العاصفة تهدأ وقد بان ضوء القمر خافتاً بين السحب لكنه أنار لي الطريق فبدأت أعرف اتجاهي الصحيح، أنوار مدينة السلط بدأت تلوح لي على البعد لكنها كالسراب، من منخفض إلى مرتفع حتى وصلت أول بيت من المدينة صادفني، وزحفت على سلم البيت زحفاً أطرقه بشدة وكان هذا آخر علمي.

بعد أن أحسست بالدفء يسري في عروقي فتحت عينيّ لأجد أحد الرجال ومعه بعض النسوة يحاولون نزع ملابسي المبتلة، صرخت بهم ماذا يفعلون قالوا الحمد الله المسكين (عم بيهذي) استأذنت من الرجل في إبعاد النسوة وأعطاني بعض الملابس، نزعت ثيابي المبتلة ولبست قميصاً وفنيلة من الصوف لكن

البنطلون لم يدخل برجلي، فقد أحسست أنها قد قطعتا وأنني أحمل كتلا من الحجر، قطعت رجلي البنطلون وأدخلته وتغطيت ببطانية من الصوف وحول النار بدأت أقص لهم رحلتي فتعجبوا لهذه المخاطرة، سألتهم هل هناك سيارات تصل السلط قالوا منذ ثلاثة أيام والخطوط مقطوعة، ولم تصل إلينا سيارات، شربت الشاي وأكلت بعض الأكل وحاولت أن أدفيء رجلي حول النار، نزعت الجزمة والشراب فوجدت رجلي قد تفطرتا وسالتا بالدماء، أحضر لي صاحب البيت قليلاً من الزيت والملح وقربه إلى النار وصببته على رجلي وأخذت أدلكهما حتى بدأت أحس بالدماء تصل إليهما.

أقمت لدى صاحب البيت أكثر من ست ساعات أحسست بالدفء وبدأت أقلب أموري هل أذهب على طريق السيارات إلى حيث بلدة صويلح وهى لاتبعد عن السلط سوى ثلاثين كيلومتراً تقريباً أو أختصر الطريق إلى رأس العين التي هى إلى مطلع الشمس من السلط، وكانت العاصفة هادئة واخترت أن أختصر الطريق من منخفض إلى مرتفع حتى وصلت إلى قرية تسمى (العليه) وصلت إليها مابين العصر والمغرب واسترحت قليلاً لكن صاحب البيت أشار على بالبقاء حتى الصباح فان مخاطر السير بالليل كثيرة خاصة وأن المنخفضات إلى رأس العين كثيرة ووجدت الرجل كريماً، وخشيت على نفسي أن يحدث لي ماحدث في السلط، ونمت ليلتي وفي الصباح الباكر ودعت الرجل ونزلت وكان صادقاً فيما أشار إلي فيه فإن المنخفضات كثيرة، ووقعت في أكثر من مرة وأنا أتحسس طريقي بين كتل الثلج، بدأت عمان تلوح لي على البعد وكانت العاصفة أقل مما كانت عليه في الأيام السابقة، المزارع من حولي كثيرة وقبل

الظهر وصلت إلى إحدى المزارع وارتميت في أحد البيوت، رجلاي بدأتا لاتقو يان على السير، أعطاني صاحب البيت واسمه عودة بعض الشاش والزيت والملح غيرت على رجلي وربطتها ثم تركت المزرعة.

وصلت إلى عمان مابين صلاة المغرب والعشاء ولم أجد أحداً في الشوارع فالعاصفة جعلتهم يلتزمون بيوتهم، طرقت بيت أحد العقيلات من جماعتنا (أهل العيون) الصقعبي والصعب، غيرت ثيابي وسألت عن الوالد قالوا إنه في بيت حمد السعيد، كنا بعد العشاء الآخر طرقت بيت السعيد طرقاً شديداً ولم يرد على أحد أحس اهل البيت بشدة الطرق فتحوا لي الباب وأشاروا على أن أدخل إلى الديوانية (المجلس) وجدت بابه مقفولا طرقته طرقاً شديداً ولم يفتح استغرب أهل البيت وأكدوا أنهم موجودون داخل الديوانية فتحت الباب (لقيت) وجدت الوالد وحمد السعيد وعبد الله السعيد على الدخيل جالسين في أماكنهم أسلم عليهم ولم يردوا السلام حاولت إيقاظهم، صرخت لأهل البيت (وشبهم) ماذا بهم لايردون، وجدت النار مشتعلة فتحت الأبواب والشبابيك عرفت أنهم (مخنوقون) أفاق حمد السعيد وقال لي خل أهل البيت (يضربون) تليفون للدكتور (ملحس) بسرعة ماندري وش الذي جرى لنا حضر الدكتور على عجل، وبدأ يحاول إيقاظهم بمادة أخرجها من شنطته، عرفت أنهم (خنقوا) من الفحم.

أفاق الجميع و بدأوا يتحسسون أنفسهم، ماذا جرى لهم؟ قال لهم الدكتور الحمد الله على السلامة وكيف تولعون الفحم وتقفلوا الأبواب.

كان أبو يوسف يقص علينا هذه القصة بين مصدق ومكذب وتذكرت كيف كان أبو يوسف مصراً على سفره، صارع الموت

والحياة ومياه الشريعة وعواصف الثلج التي قال عنها الناس إنها لم تأت على هذه البلاد منذ ثلاثين عاماً، ضحى بحياته من أجل انقاذ مجموعة أخرى لم يتفقوا على وعد، فتذكرت قوله تعالى: «ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد» فسبحان وهاب الحياة.

تغيرت أحوال الجو وأصلحت الطرق، حضر إلينا العقيلات من عمان وقصوا علينا ماحدث لهم في عمان والعواصف الثلجية التي أقعدتهم في البيت لأكثر من أسبوع وماحدث للوالد وأصحابه.

انتقلنا من منزلنا في الضفة الغربية لنهر الأردن وأقمنا في موقع آخر من جسر داميا ــ والفارعة كانت المراعي في هذه المنطقة طيبة.

وبانتهاء فصل الشتاء والربيع جاء الصيف ببوادره الطيبة، فتجهزت الأجلاب إلى أسواق فلسطين مروراً في نابلس ــ طولكرم ــ اللد. أما بقية الابل فقد اتخذنا بها مساراً إلى البيرة ــ اللد، وبعد الانتهاء من الأسواق انتظمت الاجلاب الابل في سوق اللد وصرفنا الكثير منها، وتفرق العقيلات مابين مشرق عاد إلى الوطن ومغرب يحاول تصريف ابله، وتوجهنا بما تبقى معنا من الابل إلى أسواق فلسطين الجنوبية، الفالوجا ــ غزة ــ خان يونس ــ بئر السبع، وتركنا اللد في ١٦ جماد الثاني ١٣٦٥هـ متوجهين إلى غزة.

قضينا في غزة شهر جماد الأول ورجب وشعبان، كانت هناك مناوشات بين العرب في فلسطين واليهود، وأذكر أن الوالد ــ رحمه الله ــ كان يقص على زملائه في بيت عبد العزيز الزنيدي أنه بينما هو عائد من السوق الخاص بطولكرم وتوقف في مدينة

يافا وهو في طريقه إلى موقف السيارات بين يافا وتل أبيب إذ سمع بانفجارات في سوق يافا وسمع من ركاب الاتوبيس أن اليهود وضعوا متفجرات في سينما الحمراء وسوق يافا.

وقد تناقل الناس في هذا الشهر أخبار تفجير فندق الملك داوود بالقدس من قبل العصابات الصهيونية وذهب ضحيته أكثر من مائتي فرد من العرب واليهود والبريطانيين.

وأذكر في إحدى الليالي من شهر رمضان أن طرق باب بيتنا محمد العبد العزيز الرميحي في منتصف الليل ليخبرنا أنه حدث تفتيش في البيوت المجاورة لبيته ويسكنها فاروق بسيسو من أهل غزة ولما لم يجدوا ما يبحثون عنه عادوا مصطحبين صاحب البيت إلى قسم البوليس، وفي الصباح تحقق لنا أنهم يبحثون عن الأسلحة.

انتهى شهر رمضان وذو القعدة وذو الحجة سنة ١٣٦٥هـ وقد حضر إلى غزة عبد العزيز الراشد الحميد ومعه بعض الابل فبقي ضيفاً علينا لمدة أسبوع، وبعد أن صرف إبله سافر إلى عمان بانتظار وصول أخيه سلمان من العراق، وفي نهاية الحجة ١٣٦٥هـ كان الوالد قد صرف ماالديه من الابل وقد ربحت تجارته (العشر اثنى عشر) على حد قوله للمرحوم عبد الله الشبعان.

بقيت في غزة بينما سافر الوالد إلى عمان يوم الخميس ٤ محرم ١٣٦٦هـ. واشترى رعيتين من منصور الجربوع كان قادماً بها من أسواق العراق واشترى بعض الابل من أسواق عمان وجهزنا بالخويا والرعيان ومايلزم لاقامتنا في الغور مرة أخرى لقضاء فصل الشتاء في المراعي ونزلت الابل إلى الغور وحدد موقع

الاقامة أمام قرية النصيرات وحول الشريعة التي يمكن منها العبور إلى الضفة الغربية لنهر الأردن.

وطوال فترة غياب الوالد عني كنت أقيم بعض الأيام في بيت الزنيدي وبعض الأيام في بيت محمد العبد العزيز الجاسر، وخلال إقامتي تعرفت على بعض أبناء العقيلات المقيمين فيها أمثال: سعود الزنيدي، سعود القفيدي، محمد الصالح القفيدي، عبد العزيز إبراهيم الجربوع.

عاد الوالد من عمان يوم الخميس ١٨ محرم ١٣٦٦هـ بعد أن اطمأن على سفر الابل وأثناء وجودنا في سوق غزة يوم الجمعة حضر سليمان الفوزان العثمان، قادماً من مصر بالقطار، واشترى بعض الابل من أسواق غزة جهزها للنزول إلى الغور، ثم قدم إلى غزة علي الفايز وقد ذكر أن له رعية من الابل انضمت إلى ابلنا ونزلوا إلى الغور.

وقد تقرر أن يكون نزولي إلى الغور للانضمام إلى الخويا يوم الاثنين ٢٢ محرم ١٣٦٦هـ ويرافقني فهد المنيف من المعدية المقيمين في غزة ويسوق الابل في أسواق فلسطين وهو من العقيلات الذين يعرفون الطرق إلى أسواق فلسطين ومصر وبقي الوالد في غزة ومنها يسافر إلى عمان.

سافرنا يوم السبت باحدى السيارات المتوجهة إلى يافا التي وصلناها بعد صلاة العصر وفي أحد الفنادق أقمنا ليلتنا وكان مرافقي خبيراً بالبلاد. وتعرفنا على معالم المدينة فيما تبقى من النهار ثم دخلنا إحدى دور السينما وكانت تعرض فيلماً للفنانة أسمهان ــ أخت فريد الأطرش ــ وهو فيلم «غرام وانتقام».

لقد أعجبتني مدينة يافا في ذلك الوقت أبديت لفهد رغبتي في البقاء يوماً آخر فلقي هذا الطلب هوى في نفسه.

تجولنا في المدينة وزرنا ميناء يافا كان مزدحما بالبواخر ثم دخلنا أحد المطاعم وتناولنا طعام الغداء وتمشينا في شوارع يافا ثم دخلنا إلى شوارع أخرى قال لي إن هذه تل أبيب كانت مليئة بالمتاجر والمعروضات من البضائع والملابس، وقد أعجبتني فانيلة من الصوف اشتريتها، بخمس ليرات، وكان مامعي من النقود لايتجاوز العشر ليرات لكن الحياة في ذلك الوقت كانت رخيصة، فالاقامة في الفندق لا تكلف سوى خمسين قرشاً والأكل لايكلف في المطعم أكثر من عشرين قرشاً.

وفي المساء أبدى فهد رغبته لي بأن نسهر بأحد الملاهي، ولم أكن أعرف ماهو الملهى الليلي، ووافقت على ذلك، فذهبنا إلى ملهى لا أذكر اسمه، دخلنا إليه وهو مكان يشبه المقهى به موائد وكراس ومسرح يشبه شاشة السينما، جلس فيه أفراد الفرقة الموسيقية يعزفون لحناً، ثم دخل أحد المطربين واسمه محمد عواد وأظنه من أهل فلسطين، ثم تلته مطربة، بدأت تغني أغنية لأم كلثوم «على بلد المحبوب وديني» ثم طلب منها الحاضرون أغنية أخرى، وأخذت ترددها ولا أحفظ منها سوى (حيرانه ليه) لأن جارنا في المائدة كان يردد معها (ليه ــ ليه).

وكانت ليلة لا أنساها، ثم عدنا إلى الفندق في منتصف الليل وفي الصباح الباكر ركبنا اتوبيس أمام مكتب لتأجير السيارات إلى القدس الشريف، وأمام باب العمود توقف هذا الاتوبيس ونزلنا إلى مكتب آخر ركبنا سيارة (تاكسي) مع ثلاثة أشخاص قاصدين شونة بني عدوان على الضفة الشرقية لنهر الأردن.

وصلنا الشونة قبل غروب الشمس، وقد حاولنا أن نجد سيارة نؤجرها لتوصيلنا إلى خيامنا في النصيرات لكن عبثاً ما حاولنا، فأقمنا ليلتنا في الشونة في مكان يسميه صاحبه فندقاً، فاخترنا إحدى الغرف للمبيت بها.

وفي الصباح وجدنا شخصاً ينادي أمام الفندق (أحد رايح النصيرات) أبدينا رغبتنا وركبنا إحدى سيارات التاكسي وكانت الأجرة خمسة وعشرين قرشاً.

وصلنا إلى المخيم بعد عناء، فقد وجدناهم قد نصبوا الخيام في أحد التلال المنخفضة قرب الشريعة والسيارة التي أقلتنا في مرتفع يبعد ثلاثة كيلومترات، اضطررنا إلى مشيها على الأقدام.

وجدنا في شراعنا : صالح العقل ـــ محمد السويل ـــ وشراع سليمان الفوزان وفيه عبد العزيز الفوزان وشراع عبد الرحمن الزايدي وشراع علي الفايز، وحضر إلى شراعنا عبد الرحمن الزايدي وكان هو الموجود من التجار ومعه إبراهيم الزمامي وعبد العزيز الزمامي، ودعانا لتناول القهوة في شراعه. وبعد أسبوع حضر إلينا الوالد ومعه علي الفايز وسليمان الفوزان وعبد الله الحمد الدبيخي الذي حضر من العراق ومعه رعيتة لابن عمه عبد الله العثمان الدبيخي، وأحضروا بعض الأطعمة من عمان.

كانت أرض الغور هذه السنة قليلة الأمطار والمراعي قليلة مما اضطررنا إلى العبور إلى الضفة الغربية على غير الوقت الذي كنا نقضيه في الضفة الشرقية.

عبرت الابل من الشريعة وعبر معها الخويا والمعدية وبقيت أنا والوالد وعبد الله الدبيخي.

كان هذا اليوم بارداً وعبرت الابل الشريعة قبل الفجر وبقينا على ماتبقى من النار نتدفأ عليها وقبل شروق الشمس تركنا المكان سيراً على الأقدام إلى شونة بني عدوان وعلى الطريق المؤدي إليها توقفنا بانتظار إحدى السيارات لنقلنا، لكن طال الانتظار والرياح كانت شديدة والبرد قارساً، وكم توقفت وهم يسيرون أحاول تحريك قدمي فكان الوالد ينصحني بأن أحاول الجري أكثر حتى تتحرك الدماء في قدمي.

وكان يوماً رهيباً لا أنساه في حياتي، ولم أصدق أننا وصلنا إلى الشونة إلا بعد أن دخلت الفندق وأحضر الرجل لنا بعض الحطب وأوقد ناراً وشربنا الشاي والقهوة وفي إحدى السيارات المتجهة إلى أريحا ركبناها ووصلنا إلى فندق أريحا مابين صلاة المغرب والعشاء فأقمنا به ليلتنا.

وفي الصباح الباكر دخلنا إلى سوق أريحا واشترينا منه مانحتاجه من المواد الغذائية وحملناها على إحدى السيارات الكبيرة إلى حيث مخيمنا أمام شريعة (النصيرات).

ولم نجد المراعي بأحسن مما هى عليه في الضفة الشرقية، وبعد أيام ارتحلنا إلى المرتفعات القريبة مابين جسر داميا — ووادي الفارعة حيث مجرى (العين).

كان يزورنا في المخيم (العقيد هاشم عمر بسيسو) وهو ابن الشيخ عمر بسيسو قاضي غزة ويعمل رئيساً لقسم الفارعة يقوم بالدوريات على ظهور الخيل وكان رجلاً شهماً طالما لجأنا إليه.

وأذكر أنه كان يحدث الوالد عما يحدث في فلسطين بين العرب واليهود، وأنه قد بلغ من استهتار اليهود إلى الحد الذي

قبضوا فيه على رهائن من الضباط الانجليز وجلدوهم في مكان عام في تل أبيب.

في شهر ربيع الأول ١٣٦٦هـ تركنا الدبيخي والبازعي والفايز متوجهين إلى الأسواق لتصريف ابلهم، فإن الأحداث في فلسطين قضت على حرية التنقل والتجمع في ومابين الأسواق ولم يبق إلا شراعنا وشراع سليمان الفوزان.

وبدأنا ننتقل من مكان إلى مكان بحثاً وراء الكلأ ومن الفارعة سلكنا طريقاً آخر يؤدي إلى جنين وقبل أن نصلها نزلنا أمام قرية (عربة) وهى تقع على مرتفع من الجبل.

وأذكر أنه في ٩ ربيع الثاني ١٣٦٦هـ الموافق ١٠ مارس ١٩٤٧م كنا نقيم بالقرب من قرية عربة وهى في مرتفع جبلي وكان الرعيان يذهبون للرعي في السهول القريبة فيما بين عربة وجنين وفي المساء عادت الابل بدون الرعيان إلى (مناخها) الذي تعودت عليه ولم يكن معها أحد من الرعيان وقمت باحصائها فوجدت أن جملين أعرفهما لم يعودا مع الابل فقلت في نفسي لابد أن الرعيان قد ركبوهما.

وبعد مرور ساعتين وصل أحد الرعيان في حالة يرثى لها فسألناه عن سبب ورود الإبل بدونهم، قال كنا نرى الإبل في الوادي مابينكم وبين جنين وفي أحد المنحنيات تركنا الإبل في (تلعة) (جبال كونت دائرة وليس لها إلا مطلع واحد) تنزل منها مياه الأمطار إلى حيث الوادي الكبير، وبينما نحن جلوس خرج علينا ثلاثة من اللصوص معهم بنادق هددونا بالسلاح (وكتفونا) وكمموا أفواهنا وسرقوا جملين. أحدهما كان الوالد يعتز به فقد اشتراه الوالد من عمان وهو ضعيف وبدأ يعتني به شخصياً حتى

استرد عافيته وتعلق بالوالد فبمجرد أن يستدعيه باسمه يحضر إليه كان يسميه (دهمان)، واقتاد اللصوص الجملين وتركونا في مكاننا ولم نستطع تخليص أنفسنا من الحبال حتى تجمع بعضنا حول بعض واستطعنا بعد جهد فك الحبال وقد حضرت إليكم أما زملائي فهم خجلون من الحضور.

فبعثنا به إلى أصحابه وحضروا إلينا وفي الصباح، ركبت مع أحد الرعيان إلى مركز الشرطة في جنين وأبلغت عن الحادث.

حضر الوالد وسليمان الفوزان من غزة وأخبرناهم بالحادث فسألنا الوالد عن العرب الذين يسكنون إلى جوارنا في المرتفعات وابلغته أنهم من عرب (الحيوات) من سكان بئر السبع وفي صباح اليوم التالي كان الوالد في بيت كبيرهم و يدعى (سالم عليوى) ما أن رأي الوالد حتى سلم عليه فهو يعرفه في أسواق بئر السبع، فأبلغه بالحادث فما كان منه إلا أن أسر إلى أحد رجاله و بدأ يكلمه بكلام حتى إذا فرغ التفت إلى الوالد قائلاً لايكون لك فكر بكره تكون الجمال عندكم وفعلاً لم يمض سواد الليل حتى كانت الجمال مع ابلنا بدون أن يحس أحد بدخولها إلى (المراح) وانتقلنا بعد ذلك إلى عرابة وهى قر ية أخرى تقع على الطر يق المؤدي من يافا إلى حيفا حتى تصل إلى سهل مرج عيون،

وجهزت أجلاب إلى سوق كفر ياسيف وكانت الأسواق كاسدة مما اضطررنا إلى العودة إلى أسواق طولكرم ولم نوفق في البيع ثم سافرنا إلى اللد وفي السوق وجدنا ابلاً أرسلها عبد العز يز الراشد مع صالح البراهيم الراشد وكتب رسالة للوالد إذا لم توفق في سوق اللد فالرجاء تأخذونها معكم إلى مصر، وهكذا تركنا سوق اللد متوجهين إلى غزة في شهر رجب سنة ١٣٦٥هـ.

وأعود لأذكر القارىء الكريم كيف حددت أول مارس ١٩٤٧م للواقعة التي ذكرتها وأقول أنه عند دخولي قسم البوليس في جنين كان الجنود في استعدادات وتفتيش والقائد الانجليزي المسئول عن القسم كان في شغل شاغل عن شكواي.

فقد علمت من أحد العساكر الفلسطينيين أن اليهود في هذا اليوم قد اعتدوا بالقنابل والمتفجرات على نادي الضباط الانجليز في مدينة القدس مما أدى إلى مقتل العديد منهم.

قص على الوالد رحمه الله قصة بعد سنوات كثيرة مرت على رحلتنا هذه التي هى سنة الاجداب وسفرنا إلى شمالي فلسطين وراء الكلأ والمراعي يقول: «كنت مع سليمان الفوزان ــ ومعنا جلبان ــ متوجهين إلى أسواق كفر ياسين كنت لاأملك سوى جنيه واحد في جيبي وكنت أخفي هذا الجنيه عن زميلي سليمان عرضت الإبل في السوق ولم نوفق إلى بيعها وانتهى السوق، بادرني سليمان معك فلوس قلت له ليس معي شيء، كانت الدنيا قد ضاقت بنا، كيف نعود إليكم وأنتم محتاجون إلى الأرزاق والمؤن وعلمت أن سليمان لايحمل معه نقوداً، فأخرجت الجنيه وصرفته، دفعت أجرة لي وله عشرة قروش، ركبنا الحافلة إلى قرية عرابة ونزلنا من الحافلة وجلسنا في إحدى المقاهي نفكر ماذا نحضر لكم، هل نتغذى، بهذه البقية من الجنيه أم نحضر لكم معنا بعض الدقيق لمؤنتكم؟ وأنا في تفكيري لمحت شخصاً من أهل طولكرم اسمه عبد الفتاح كان قد استدان مني مبلغاً من المال قيمة جمال ولم يردها جريت إليه بينما تعجب سليمان هل حدث لي مس من الجنون، أمسكت بالرجل ورحنا في عناق أخوي، لم أره منذ مدة ثلاثة أشهر وأحضرته إلى حيث يجلس سليمان، سلم عليه وشكونا إليه أحوالنا فتح الرجل صرة

كانت معه وأخرج منها عشرين جنيها ناولني إياها وأنا بين مصدق ومكذب ثم ودعنا وانصرف.

دخلت أنا وسليمان أحد المحلات واشترينا أربعة أكياس من الدقيق لنا كيس وسليمان كيس واشترينا عشرة كيلو لحم واستأجرنا إحدى السيارات وعدنا إليكم ومن الصباح الباكر لم نكن قد ذقنا الزاد وقد أنستنا فرحتكم بنا ماعانيناه من تعب وارهاق وجوع خاصة وأننا عدنا إليكم محملين بالمؤن.

كان الوالد يقص علي هذه القصة أمام أخواني وبعد مرور فترة طويلة، واستطرد يقول لقد كنا نضحي بأنفسنا في سبيل لقمة العيش الشريف وكنا نخفي عنكم ماتحملناه من تعب.

بعد أن فقدنا الابل في أسواق فلسطين خاصة وأن الأحداث كانت تتوالى فهنا انفجارات، وهناك اعتداءات وأضحت فلسطين غير آمنة.

فتجمع مابقى من العقيلات في غزة واستقر الرأي على أن يعود من صرف ابله إلى عمان ويسافر ما تبقى من الابل إلى مصر.

الرحلة إلى مصر

تكونت مجموعة من العقيلات للسفر إلى مصر وكان مع الوالد رعية، ورعية كلفه عبد العزيز الراشد الحميد ببيعها، وكانت مجموعتنا تتكون من الوالد ــ صالح البراهيم الراشد ــ ابراهيم العفية ــ محمد الفريحي ــ وأنا ومن المعدية: فهد المنيف ــ صالح العقل ــ عبد الله المطلق وبعض الرعيان.

وكان يرافقنا : عبد الله القفيصي ومعه أربعة رءوس من الخيل يرافقه عيد المحمد ــ على الصبيحي ــ ورعية إبراهيم السليمان الجربوع، ورعية مع سليمان العبد الله الصبيحي، ومعهم بعض الرعيان والخويا، ومعنا أربعون رأساً من الابل للمرحوم عبد الله أبو هلال.

خرجنا من غزة صباح يوم السبت ٢ شعبان ١٣٦٦هـ/٢١ يونيو ١٩٤٧م، وكان دليلنا في هذه الرحلة عبد الله القفيصي، يعاونه صالح العقل لخبرتها في هذه الدروب، ووصلنا قبل الظهر إلى دير البلح (ضحينا) بإحدى الحواكير وجهزنا طعام الغداء والقهوة والشاي، وسارت القافلة بعد ذلك باتجاه خان يونس، التي وصلناها بعد المغرب، واشترينا من أحد الحوانيت بعض لوازم الرحلة ثم واصلنا المسير باتجاه رفح، وهى نهاية الحدود الفلسطينية، وفيها رفح المصرية وهى محطة كبيرة للقطار القادم إلى فلسطين من مصر.

ورفح يقول عنها ياقوت : «منزل في طريق مصر بينه وبين عسقلان يومان، وأول الرمل كان مدينة عامرة وبها سوق كبير».

وفي منتصف الليل نزلنا في رفح الفلسطينية وهى قرية كبيرة وكثيرة أشجار الفاكهة وبها مزارع كثيرة، وقد ذهب أحد الخويا إلى أحد المحلات واشترى (علفاً) للابل وبعض اللوازم للقافلة. وفي الصباح تحركنا إلى رفح المصرية، وهى قرية كبيرة وبها محطة كبيرة للقطار، وفيها أسواق ومزارع وهى أكبر من رفح الفلسطينية وتفصلها أسلاك شائكة وعلامات تدل على الحدود مابين مصر وفلسطين.

تركنا رفح وبدأنا نسير بالنفود أو صحراء سيناء باتجاه الشيخ زويد، وهى أيضاً قرية كبيرة وقريبة من البحر الأبيض المتوسط وبها مزارع كثيرة وبيوت وبعض الحوانيت يشتري منها المسافر، وسارت القافلة باتجاه قطيا، وهى المورد الثاني بعد غزة.

قطيا : قال عنها ياقوت : (قطية) قرية في طريق مصر في وسط الرمل قرب الفرما بيوتهم صرائف من جريد النخل.

وقال عنها الرحالة ابن بطوطة(١) : قطيا مشهورة، وبها تؤخذ الزكاة من التجار ونفيس أمتعتهم وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود ومجباها في كل يوم ألف دينار من الذهب، ولايجوز عليها أحد إلى الشام إلا ببراءة من مصر ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام، وطريقها في ضمان العرب قد وكلوا بحفظه فاذا كان الليل مسجوا على الرمل حتى لايبقى أثر ثم يأتي الأمير في الصباح، فينظر إلى الرمل فإن وجد به أثر طالب الأعراب

---

(١) تحفة النظار في غرائب الأمصار جـ ١ ص ٧٠.

بإحضار الجباية. وكان بها في عهد وصولي إليها، عز الدين أستاذ الدار قماري من خيار الأمراء.

أما عند وصولنا إلى قطيا، فلم نجد إلا بعض البيوت العامرة، وخراب وأطلال تدل على ماضي هذه البلدة، وجدنا بئرا للمياه، يسقي منها الأعراب بواسطة (طلمبة) كهربائية وهى لا تبعد عن طريق القطار سوى بضع كيلومترات وفيها محطة صغيرة للقطار يتوقف فيها وقت الحاجة إلى ذلك.

ثم سقينا الابل بواسطة أحواض شيدت من الطين والجبس، ودفع على كل رأس قرشان، ومياهها عذبة، ثم واصلنا المسير إلى حيث العريش، وقد رافقنا أحد الأعراب على جمل يقصد قرية اسمها المساعيد قبل العريش في أحد الكثبان الرملية حطت القافلة للاستراحة بعد عناء السقيا، والمسير. وكان قد مضى على سفرنا من غزة يومان وهذه الليلة.

في الصباح الباكر تحركت القافلة وبدأنا نشاهد على البعد قرية صغيرة بها الكثير من أشجار النخيل وبها بعض البيوت، فاستأذن مرافقنا إلى حيث مقصده قرية المساعيد، وقرب الظهر كنا في العريش، وأقنا شرقي وادي العريش وأرضه مبسوطة، فالمدينة كبيرة وفيها مبان حديثة، وقد اخترنا أحد البيوت المنعزلة شرقي الوادي، وأقنا فيها لدى أحد العقيلات واسمه عبد العزيز ابن جميعة وهو مقيم في العريش منذ مدة طويلة، وهو وكيل العقيلات في هذا البلد ومسئول عن تخليص أوراقهم الرسمية التي تخولهم دخول مصر معروف لدى الجهات الرسمية في العريش، ووكيل للحكومة السعودية، يعطي أوراقاً تحمل أسماء العقيلات وتبعيتهم للمملكة، وكانت الأوراق التي تصدر منه

بعنوان: الوكالة السعودية بالقاهرة باسم ملك الحجاز وسلطان نجد إلى من يهمه الأمر والاسم والمهنة.. الخ وحصلنا على هذه الأوراق وتحركنا إلى القنطرة الشرقية، وهي أول مدخل إلى أسواق مصر من سيناء.

الجفار : (أو سيناء) أرض يقول عنها ياقوت في المعجم(١) «أرض من مسيرة سبعة أيام من فلسطين ومصر أولها رفح من جهة الشام وكلها رمال سائلة بيضاء غربيها منعطف نحو الشمال ببحر الشام (البحر الأبيض المتوسط) وفي شرقيها منعطف نحو الجنوب إلى بحر القلزم (البحر الأحمر) وسميت الجفار لكثرة الكفار بأرضها.

و يزعمون أنها كانت كورة جليلة في أيام الفراعنة إلى المائة الرابعة من الهجرة، فيها قرى ومزارع. أما الآن ففيها نخل كثير وهو ملك لقوم متفرقين من أهل مصر، يأتون أيام لقاحه فيلقحونه وأيام إدراكه فيجتنونه و ينزلون بينه مع أهلهم في بيوت من سعف النخيل.

وهو في عصرنا الحاضر مايعرف بالمصيف ينتقل الناس إلى مصايف سيناء يقضون فيها فصل الصيف.

وفي الجادة السابلة إلى مصر (الطريق المؤدي إلى مصر) عدة مواضع عامرة، يسكنها قوم للمعيشة على القوافل وهي: رفح ــ القس ــ الزعقا ــ العريش ــ الواردة ــ قطيا، وفي كل موضع من هذه المواضع عدة دكاكين يشتري منها المسافر كل مايحتاج إليه.

---

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ٢ ص ١٤٥.

وقد تبدلت هذه المواضع إلى قرى كثيرة البناء واستعاضوا عن إقامة البيوت من سعف النخيل إلى بيوت مبنية باللبن والجبس والحجارة التي جلبوها من الجبال الواقعة، شرقي العريش وإن احتفظت بالحوانيت والأحواش الخاصة بإقامة القوافل.

ثم تطورت هذه القرى خلال القرن التاسع عشر عندما تم مد الخط الحديدي من فلسطين إلى مصر، وأصبح فيها محطات للقطارات خاصة في رفح التي أقيمت فيها مدينتان: رفح الفلسطينية ورفح المصرية والعريش التي أصبحت هي عاصمة شمال سيناء ثم أقيمت مدينة القنطرة شرقاً على ضفة قناة السويس، والتي أصبحت مدخل سيناء ونقطة العبور إلى ضفة القناة الغربية حتى مدينة القنطرة غرباً.

ويقع جبل الطور في سيناء، فيقال طور سيناء وهو الجبل الذي كلّم عليه الله تعالى رسوله موسى بن عمران عليه السلام، ونودي فيه، وهو كثير الشجر، وفيه دير في أعلى الجبل وداخله عين ماء وخارجها عين أخرى ويسمى الآن دير سانت كاترين في جنوب سيناء وفيه مسجد أقيم بعد الفتوحات الإسلامية، وقد تعمر هذا الدير وأصبح مزاراً يقصده السواح من جميع أنحاء العالم.

أما مدينة العريش(١) : فهي أول مدن مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) كثيرة الطيور والجوارح والمأكول والتمور والثياب التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرف بالقسية وبها الرمان العريشي، وقيل سمي العريشي لأن إخوة يوسف عليه السلام كلما أقحط الشام

---

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ٤ ص ١١٣ ــ ١١٤.

ساروا إلى مصر، وكان ليوسف حراس على أطراف البلاد فمسكوا بالعريش وكتب صاحب الحرس إلى يوسف بقوله له أن أولاد يعقوب الكنعاني قد وردوا يريدون البلد للقحط الذي أصابهم فإلى أن أذن لهم عملوا لهم عريشا يستظلون به تحته من الشمس فسمى الموضع العريش.

فكتب يوسف إلى عامله يأذن لهم في الدخول إلى مصر، والقرآن الكريم قص علينا قصة يوسف واخوته.

ومدينة العريش كانت مرسى فرعون مصر وهى آخر مدينة تصل بالشام، وفيها جامعان ومنبران وهواؤها صحيح طيب، وماؤها حلو عذب وبها سوق جامع كبير وفنادق ووكلاء للتجار ونخل كثير.

وقد غادرنا العريش مساء يوم الثلاثاء ٥ شعبان ١٣٦٦هـ في طريقنا إلى القنطرة الشرقية، وكان التجار بعد انتهاء الاجراءات الرسمية قد ركبوا القطار إلى القنطرة الشرقية وعلى بعد مسيرة ساعتين من العريش توقفنا حول أحد الكثبان الرملية حتى تجمعت الإبل وسرنا باتجاه بئر العبد، التي وصلناها في الصباح.

وأذكر أننا توقفنا مابين بئر العبد والدويدار حول كثبان الرمال وفيها بقعة النخيل وكان الجو حاراً توقفت أمام نخلة قصيرة طلعت على فروعها فوجدت فيها رطب أخذت منها القليل وأكلته ثم عدت إلى راحلتي وعلى ظهرها أخذني النعاس ولم أصحُ إلا على صوت فهد المنيف يناولني عصا كانت بيدي وعندما استغرقت في النوم وقعت مني والتقطها فهد وأعطاني اياها، وقد أنبت نفسي كيف أنام على ظهر الراحلة.

ثم وصلنا إلى الدو يدار وهى محطة للقطار وحولها بعض البيوت المشيدة بالحجارة والطين والمبنية من صرائف النخيل، وحولها بعض بيوت الأعراب. وفي المساء كنا قد وصلنا إلى القنطرة الشرقية.

القنطرة الشرقية

مدينة كبيرة تقع شرقيّ قناة السويس، وفيها محطة للقطار القادم من مصر إلى فلسطين، يعبر القطار قناة السويس من الغرب إلى الشرق، وفيها إدارات حكومية للصحة والداخلية والجمارك وفيها معدية لنقل الناس والبضائع من الشرق إلى الغرب وبالعكس تعمل ابتداء من الساعة الثانية عشرة ظهراً عندما تكون قناة السويس خالية من السفن المارة.

أدخلت الابل إلى مبنى كبير فيه أحواش للابل والمواشي وتسمى (الكورانتينه) أو الحجر الصحي تبقى المواشي في هذا المبنى ثلاثة أيام يكون التجار قد اتفقوا على تعديتها إلى الضفة الغربية وانهاء الاجراءات الرسمية التي يقوم بها وكلاء العقيلات وهم في ذلك الوقت: سليمان الرميح وأولاده من أهل بريدة، وحمد المسلم، يدفعون رسوماً على الابل ورسوم التعدية بواقع خمسين قرشاً رسوم وعشرة قروش للمعدية للرأس والراكب.

والمعدية عبارة عن باخرة تصل حمولتها إلى ألفي طن تحمل حوالي مائة رأس من الجمال وبها مكان للركاب والسيارات وتسير بمحركات من الشاطىء الشرقي إلى الغربي وبالعكس.

تحدد لعبور الابل صباح يوم السبت ٩ شعبان ١٣٦٦هـ الساعة الثانية عشرة يدخل عشرون جملاً من ابلنا وعشرون من ابل الراشد وعشرون من ابل الصبيحي وعشرون من ابل إبراهيم الجربوع، فخرجت الابل على دفعات مارة بمبنى الجمارك ومنه

إلى شارع محاط بأسلاك من الجانبين تساق الابل حتى تركب المعدية وتقفل الأبواب وفي خلال عشر دقائق تكون الابل قد خرجت إلى الشط الغربي ومعها الرعيان بدأ العبور من الساعة الثانية عشرة حتى الساعة السابعة مساء وفي القنطرة الغربية توقفت الابل حتى اكتملت وحضر التجار والخويا.

وفي إحدى المزارع أدخلت الابل حيث تأكل من الأعلاف مقابل مبلغ من المال بينما الخويا يجهزون طعام العشاء وبعد أن أكلنا وشربنا القهوة والشاي وودعنا التجار ليستقلوا القطار إلى الزقازيق.

سرنا ليلاً باتجاه الاسماعيلية على الطريق الزراعي حيث يكون قد خفت فيه حركة سير السيارات في منتصف الليل توقفت القافلة بعد أن دخلنا في الصحراء وأقمنا ليلتنا وفي الصباح تحركنا كانت الشمس حارة وسموم الصحراء تلهب الوجوه وعدينا إلى الصالحية وكانت عبارة عن غابة من النخيل، توقفنا حول القرية وذهبنا نسأل عن أحد العقيلات الذي كان قد أقام فيها وتزوج من أهلها وله ولد يدعى رشيد الصالح، وقد زرته في بيته مع فهد المنيف وأكرمنا الرجل ثم واصلنا المسير إلى حيث أبو حماد وهي قرية صغيرة أقمنا فيها ليلتنا وفي الصباح غادرناها إلى التل الكبير وهي قرية كبيرة وفيها معسكرات للجنود الانجليز وفي المساء كنا قرب الزقازيق.

والزقازيق مدينة كبيرة، وهي عاصمة محافظة الشرقية، وفيها سوق كبير للمواشي، وسوقها يمتد يومي الاثنين والثلاثاء من كل أسبوع، فأدخلنا الابل في أحد الأحواش واستقبلنا التجار ومعهم بعض وكلاء التجار القادمين من الأسواق المصرية من امبابة وبلبيس.

وفي صباح يوم الثلاثاء ١٢ شعبان ١٣٦٦هـ أدخلت الابل إلى السوق، حيث باع الوالد يومها جميع الابل الخاصة بنا، وجلس صالح الراشد ليبيع ابلهم ولم يتصرف منها سوى عشرة جمال كنت أجلس في إحدى المقاهي في السوق عندما بادرني رجل يرتدي الملابس المصرية، وسألني بلهجة مصرية (أنت من المعكرشه أو من خب القبر) ولم أنتبه أو أفهم ماقاله، لكن أحد الجالسين صغير السن وإن كان هو الآخر يرتدي الزي المصري، قال لي رد على الشيخ فايز، عرفت أنه فايز إبراهيم الحميد من أهل بريدة وأنه بهذا الكلام يداعبني، وهو يعرف أن جدي هو صاحب خب العكرشة شرقي مدينة بريدة أما الجالس إلى جواري فقد عرفني بنفسه فهو عبد العزيز المحمد الرشيد العمرو وهو أيضاً من الجماعة لكنه من مواليد بلبيس وأخوه سليمان هو الجالس إلى جوار صالح الراشد كسمسار.

انتهت مدة السوق يوم الاثنين وخرجنا إلى الحوش الذي أجرناه في ليلتنا السابقة وحضر مجموعة من وكلاء التجار ابراهيم مرسي وهو وكيل عبد العزيز الحجيلان وبدأ يتفاوض مع الوالد على شراء ابل الراشد وتدخل أحمد السليمان البراك وهو من أهل بريدة ومولود في بلبيس ورفع السعر، وهنا بدأت المنافسة ووصل سعر الرأس إلى سبعة وعشرين جنيها، ووافق الوالد على هذا السعر لحساب عبد العزيز الحجيلان وأن يتم صرف القيمة في سوق بلبيس، دفع المشتري عربوناً مائتي جنيه صرف منها الوالد ايجار الرعيان والمعدية وودعناهم، وذهبنا إلى محطة القطار، كنا الوالد وأنا وصالح الراشد ومحمد الفريحي، وسافرنا إلى بلبيس.

الفصل الخامس

بلبيس

تعتبر نقطة لقاء للعقيلات مع وكلائهم وفي سوقها يومي الخميس والجمعة تجتمع الابل القادمة من الجزيرة العربية وفلسطين والاردن والابل القادمة من السودان، وأثناء وجودنا في بلبيس كان لايزال الكثير من أبناء العقيلات يقيمون في القاهرة وبلبيس مثل: الحليسي ــ أبو بطين ــ سليمان البراك ــ محمد العمرو ــ فايز الحميد ــ إبراهيم الحميد وأولادهم يمارسون تجارة الابل والخيول ووكلاء لتجار الكويت ــ بغداد ــ عمان يودعون التجار نقودهم في مصر ويتسلمونها في المكان الذي يحدده التاجر.

وبلبيس مدينة كبيرة لها ــ بفضل موقعها(١) ــ أهمية كبيرة في العصور الوسطى، واسمها مشتق من القبطية (قلبيس) تقوم بلبيس على طريق الغزو الطبيعي لمصر، ولذلك كان مصير هذا البلد أن تلقى حصار الجيوش القادمة لغزو مصر، فكان أول ماحدث سنة ١٩هـ/٦٤٠م على يد العرب الذين توقفوا فيها شهرا وكانت بلبيس أول محطة في طريق الجنود المغادرة إلى الشام ويسميها الدمشقي باب الشام.

وجرت العادة أن تكون هذه المدينة على طريق حملة البريد وقاعدة الحمام الزاجل، وكانت إلى عهد قريب حاضرة الشرقية، ولكن الزقازيق حلت محلها في القرن التاسع عشر.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٧ ص ٥٤٥.

وفي سنة ١٠٩هـ/٧٢٧م أنزل المدير المالي لمصر قبيلة قيس في إقليم بلبيس وكان عدد أفراد القبيلة ٣٠٠٠ شخص، وقد ساعد وجودهم على نقل التجارة حيث شكلوا كتيبة لهذا الغرض.

وإذا كان هذا حال بلبيس في العهود القديمة، فإنها ظلت الباب الوحيد المؤدي من مصر إلى الشام، حتى تم حفر قناة السويس، وأصبحت القنطرة الغربية والشرقية البابين الرئيسيين إلى بلاد الشام، ومهما يكن من أمر فإن بلبيس احتفظت بطابعها العربي الفريد حيث يلتقي عرب الصحراء من سيناء والجزيرة العربية في هذه المدينة واختلطوا بالأنساب.

وفي بلبيس وجدنا بعض التجار : محمد العبد الرحمن الرواف ــ عبد العزيز الحماد يسكنان في حوش صالح الحليس في شرقي مدينة بلبيس. وصلت الابل وأدخلت إلى الحوش، وهى قادمة من أسواق بلبيس ويسكن العقيلات في هذا الحوش الكبير حيث يضم حوالي عشر غرف ومجلس وحمام وحوش كبير يتسع لحوالي خمسمائة رأس من الابل.

كان الموجودون في هذا الحوش : الوالد ــ سليمان العبد العزيز الصبيحي ــ إبراهيم السليمان الجربوع ــ عبد العزيز الحماد ــ محمد الرواف ــ إبراهيم المسلم ــ صالح الراشد ــ محمد الفريحي وحوالي عشرة من الخويا، وكل تاجر يدفع مبلغاً من المال على كل فرد مسئول عنه ويجمع هذا المبلغ في صندوق يصرف منه على المعيشة طوال فترة الإقامة، وقد تولى مهمة هذا الصندوق سليمان الصبيحي.

أقمنا في بلبيس ما بقي من شعبان ورمضان وشوال وذى القعدة ١٣٦٦هـ، وكانت الأجلاب ترسل إلى الأسواق حيث يذهب التجار معها يصرفون ابلهم، ثم يعودون إلى بلبيس، أما الأسواق فهي: شبين الكوم ــ الزقازيق ــ بلبيس.

بقيت أنا وصالح الراشد في الحوش نذهب إلى بيت سليمان البراك ونلعب مع أبنائه يونس واسماعيل، حيث كنا نذهب إلى السينما أو الأفراح، ثم نعود إلى الحوش.

وفي هذه الفترة انتشر وباء خطير في القرى المصرية القريبة من بلبيس وهو (مرض الكوليرا) الذي استشرى في هذه البلاد، وحضر مجموعة من الأطباء إلى جميع المنازل يطعمون الناس بالمصل المضاد لهذا المرض الخطير، وقد أمرت الحكومة المصرية يومئذ بعدم السفر من وإلى بلبيس، وكل يلزم منطقته لفترة شهر أو أكثر، وأصبحنا محاصرين ــ ليس من الغزاة كما كانت بلبيس في الأزمنة الغابرة ــ وإنما هو اتقاء لشر هذا المرض الخطير.

كان الجو صيفاً، وكنت أنام وصالح الراشد فوق أسطح الغرف في حوش الحليس نطلع على سلم صغير يؤدي إلى السطح، وهو قريب من سطح الشارع، وبامكاننا النزول من السطح إلى الشارع حيث نذهب إلى السينما ليلاً، ثم نعود إلى حيث كنا دون أن يعرف أحد من الموجودين في البيت.

كان التجار ينامون في نحو الثامنة مساء، ونستأذن منهم إلى طلوع السطح ومنه إلى الشارع، وكانت أيام طويلة قضيناها أنا وصديقي صالح نذهب إلى المقهى حيث نتناول الشاي ثم إلى السينما. وأذكر أننا شاهدنا من الأفلام مايزيد على المائة منها

أفلام عبد الوهاب القديمة مثل الوردة البيضاء، رصاصة في القلب، لست ملاكا، وأفلام أم كلثوم: مثل: سلامة ــ وداد، وقد شاهدنا فيلم سلامة أكثر من مرة.

بقينا على هذا الحال حتى بداية شهر ذى الحجة عندما صرح بالسفر من بلبيس إلى القنطرة ثم إلى فلسطين سافر صالح الراشد محمد الفريحي وبعض من خويا سليمان الصبيحي، وفي يوم سمعت الوالد يقول للشيخ إبراهيم الجربوع سوف نسافر إلى القاهرة وكل إنسان يسافر بوسيلته التي يستطيع بها الهروب من هذا الحصار، سمعت إبراهيم يقول للوالد اتفقت مع سيارة تنقل جريدة المصري أما الوالد فقد اتفق مع إحدى سيارات التاكسي إلى المطرية وكانت أجرة الفرد من بلبيس إلى القاهرة في ذلك الوقت بالقطار خمسة قروش وبالاتوبيس ستة قروش، أما النفر بالتاكسي فهو بتسعة قروش. اتفق الوالد ــ كما قلت ــ مع أحد أصحاب التاكسي على أن ينقلنا إلى القاهرة بخمسة جنيهات واشترط علينا أن ننزل قبيل كوبري المعاهدة، حيث هناك نقطة كبيرة للتفتيش، ثم نعبر سيراً على الأقدام من أحد الجسور الصغيرة في وسط المزارع، ونلتقي به على الخط، وهكذا كان، فقد ركبنا من إحدى المقاهي في بلبيس ذلك التاكسي، حتى إذا اقتربنا من الكوبري توقف السائق، ونزلنا وأشار إلينا أن نتجه إلى المزرعة المقابلة ومنها نجد(كوبري)صغيراًيعبرنهر النيل من قنطرة صغيرة سيراً خلال المزرعة أكثر من ساعة، حتى عثرنا على هذا الكوبري الصغير، وعبرناه مع أحد المزارعين حتى أصبحنا بالقرب من خط الأسفلت المؤدي إلى المطرية، توقفنا على الخط وإذا السائق يمر بنا ويتوقف، ركبنا معه حتى وصلنا إلى المطرية، إلى شارع يسمى ترعة الجبل وأمام اسطبل الشيخ

فوزان السابق، حيث يربي فيه خيول كثيرة، يدخل بها سباقات الخيل في مصر. توقف التاكسي ونزلنا منه، فودعنا السائق شاكرين. أما الاسطبل فهو مبنى كبير يضم غرفاً خصصت للخيول وغرفاً كبيرة لسكن الجوكية والمسئولين عن تربية الخيول وغرفاً واسعة للضيوف.

وفي المجلس الكبير وجدنا عبد العزيز الحماد وهو يرتبط بصلة نسب هو والشيخ فوزان السابق القنصل العام للمملكة العربية السعودية في مصر، وجدنا رجلاً كبيراً في السن يرتدي الملابس العربية، وعقال مطرز بالذهب، عرفه الوالد واذا هو عبد الله العيسى والد الأخ إبراهيم العبد الله العيسى القنصل العام للمملكة العربية السعودية في عام ١٤٠٠هـ. وله خيول يربيها، وبعد قليل نودي لصلاة الظهر، وأم الحاضرين عبد الله العيسى، وبعد أن فرغنا من الصلاة كان قد تجمع حول الصلاة الكثير من العقيلات الموجودين في المطرية، فقد حضر الشيخ عبد العزيز السابق وابنه صالح وحضر عبد الله البراهيم أبا الخيل، وأخوه صالح، وإبراهيم السليمان الجربوع. وعلى مائدة الغذاء حضر الشيخ فوزان السابق، وهو رجل مهيب الطلعة طويل القامة نحيف الجسم، يشبه إلى حد كبير جلالة المرحوم الملك فيصل بن عبد العزيز. يرتدي الملابس العربية، وغترة وعقال مطرز بالذهب وعباءة بيضاء خفيفة، وبعد أن سلم على الحاضرين جلس يتناول طعام الغذاء.

خرجت مع الوالد وابراهيم الجربوع إلى (اسطبل) الشيخ عبد الله ابراهيم أبا الخيل وهو لايبعد سوى أمتار قليلة في نفس الشارع، وتناولنا القهوة والشاي، وتعرفنا على المجموعة الموجودة من العقيلات ثم عدنا إلى اسطبل الشيخ فوزان السابق ووجدناه يتأهب للنزول إلى القاهرة.

(القاهرة)

سمعت الشيخ فوزان يسأل الوالد وإبراهيم الجربوع إذا كانوا يرغبون البقاء أو النزول إلى القاهرة، فأبدوا رغبتهم في النزول حيث أن هذا اليوم هو وقفة عرفات ٩ الحجة ١٣٦٦هـ الموافق ٢٤ أكتوبر ١٩٤٧م وسوف يصلون العيد بالجامع الأزهر.

ركبنا مع الشيخ فوزان في سيارته، وجلست في المقدمة بين السائق وعبد العزيز الحماد، وفي الخلف جلس الشيخ فوزان والوالد وإبراهيم الجربوع، سلكنا الطريق المؤدي حول سور قصر القبة إلى حيث ميدان فسيح من حدائق جميلة أمام بوابة القصر، ودخلنا شارعاً كبيراً عرفت أن اسمه شارع ملك مصر والسودان، ثم إلى شارع كبير حوله حدائق ومحاذ لقضبان السكة الحديد، عرفت أنه شارع الملكة نازلي، وعلى ما أعتقد أنه شارع (رمسيس) الآن حتى إذا أقبلنا على ميدان فسيح التفت الشيخ إلى إبراهيم الجربوع قائلاً: (و ين تنزلون) أين تنزلون؟ فأقبلنا على ميدان المحطة أي ميدان محطة مصر.

الميدان فسيح وبه حدائق، وفي الوسط (عسكري) يجلس على مبنى صغير مرتفع يصرف مرور السيارات الذي لم يكن مزدحماً في هذا الوقت من الليل، فتوقف السائق أمام إشارة من العسكري. وأراد الوالد النزول لكن الشيخ أشار إليه أن يبقى حتى يشير العسكري بالسير ونقف في مكان بعد الميدان.

وكانت الأنوار في هذا الميدان كأننا بالنهار، واللافتات تضيء وتطفىء وهى عبارة عن اعلانات عن فنادق وأماكن توقف السائق بعد إشارة من الشيخ ونزلنا إلى شارع سماه لي الوالد (كلوت بك) حيث يزدحم هذا الشارع بالفنادق وسرنا حتى نهايته وقبل ميدان صغير يتصدره جامع توقفنا أمام فندق اسمه (لوكاندة محمد على) دخلنا من البوابة واستقبلنا صاحبها أو المسئول عنها في ترحاب فهو صديق للعقيلات و ينزلون عنده.

اختار الوالد غرفة لنا مكونة من سر ير ين واختار إبراهيم الجربوع غرفة مجاورة، كنت لأول مرة أنام على سر ير، ولذلك اختار لي الوالد السر ير الموازي للحائط ورحت في نوم عميق لم أفق منه إلا على صوت الوالد وهو يربت على خدي وأنا ممدد على الأرض، لقد وقعت من السر ير أثناء النوم، ولم ينفع حذره في اختيار سر يري إلى جوار الحائط.

في الصباح الباكر دخل إلى الغرفة شخص يحمل صواني فيها من الجبن والزبد والمربى والشاي والقهوة العربية في مر يول أبيض، تناولنا الافطار وتوضأنا ثم تركنا الفندق إلى أين؟ لا أعرف. وخرجنا من باب الفندق والمارة في هذا الشارع قليلون خاصة في الوقت الذي خرجنا منه، خرجنا إلى ميدان صغير عرفت أن اسمه (ميدان الخازندار) لاأعرف سر هذه التسمية(١)، الميدان يمر به خطوط حديدية قال لي الوالد هذا خط (الترومواي) أو الطرماي، كما كانوا ينطقونه، خرجنا من حواري ضيقة إلى

(١) كلمة الخازندار تركية تعني خازن بيت المال، أي وز ير المالية، وكانت وظيفة محترمة في العصر العثماني، و يرجع أن منزل (خازندار مصر كان بهذا الميدان فاشتق منه هذا الاسم.

ميدان فسيح فيه أشجار، قال إبراهيم الجربوع يوجه الكلام إلى: هذا ميدان العتبة الخضراء.

وهذا الشارع الطويل يؤدي إلى شارع الأزهر، وهذا شارع الموسكي، الموازي للشارع الكبير فيه جميع الصناعات، والمحلات الآن مغلقة لعطلة العيد. سرنا مع الشارع الكبير تتفرع منه شوارع كبيرة وصغيرة حتى وصلنا إلى ميدان فسيح جامع على اليمين وآخر على اليسار، دخلنا إلى الجامع الأزهر، الجامع كان يعج بالمصلين، ولفت نظري أن في هذا الجامع أكثر من مئذنة خاصة وأن فيه مئذنة أخرى لها رأسان، الجامع مليء بالمصلين، الترنيمات والتكبيرات والتهليل. أدينا صلاة السنة وجلسنا. أذن للصلاة فقام أحد المشايخ، يلبس عمامة وطربوشاً أحمر يخطب خطبة العيد، وبعد أن فرغنا من الصلاة تفرقت جموع المصلين إلى حلقات وكل حلقة جلس على رأسها شخص بدأ يعظ المصلين، وأمام إحدى الحلقات جلسنا نستمع إلى الدرس، كان الموضوع حول قوله تعالى: «ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد» الآية. كان درساً بليغاً من شيخ تدل ملامحه على الصلاح.

خرجنا من الجامع الأزهر وأشار الوالد إلى حيث الجامع الآخر قائلاً هذا مسجد (الحسين) فدخلنا، وأدينا ركعتي السنة تحية للمسجد، وكان يعج بالناس ويزورون حول مقام كبير، فقال ان هذا قبر الحسين رضى الله عنه. وبعد الزيارة خرجنا إلى إحدى المقاهي المجاورة لمسجد سيدنا الحسين، وجلسنا فيه وطلبنا شاياً أخضر وطبقاً من الفول لكل واحد، وأكلنا وشربنا من هذا الشاي الذي أعجبني فطلبت ابريقاً آخر، قال إبراهيم

الجربوع هذه (قهوة الفيشاوي) وهى مشهورة في مصر، وصاحبها هذا الشيخ الذي يجلس وحوله بعض الرجال ومن ملابسهم تظهر عليه النعمة والسلطان.

تركنا هذه المقهى وسلكنا طريقاً آخر في عودتنا، كان شارعاً صغيراً وحوله مداخل ختيان كثيرة عرفت أن هذا شارع الموسكي، وخرجنا منه تاركين العتبة الخضراء إلى اليسار ودخلنا شوارع جانبية أدت بنا إلى شارع يقع شرقي سور حديقة كبيرة واسعة بها أشجار عالية قيل لي إن هذه حديقة الازبكية وأمام فندق اسمه (فندق اسكندرية الكبرى) توقفنا فقال الوالد لإبراهيم الجربوع نطلع نسلم على (التميمي)، فصعدنا سلالم الفندق إلى حيث الدور الرابع، فطرقنا باب إحدى الغرف خرج إلينا رجل يرتدي الملابس العربية فسلمنا عليه، وعرفه الوالد بي انه محمد العبد الرحمن التميمي من أهل القصيم ويقيم في هذا الفندق منذ عشرين سنة وهو من تجار العقيلات.

ويقع هذا الفندق مباشرة أمام سور الأزبكية من الشرق، ويقابل شارع فؤاد الذي امتد الآن بعد أن فصل الحديقة إلى جزئين، وقد بقى هذا الرجل مقيماً إلى سنة ١٣٨٠هـ عندما توفى وهدم الفندق واقيم مكانه مبنى آخر حديث.

سلكنا طريق عودتنا من عند التميمي شارعاً آخر يقع غربي حديقة الأزبكية لا أعرف اسمه في ذلك الوقت(١)، لكنه الآن هو شارع الجمهورية، اخترقناه حتى وصلنا إلى ميدان المحطة أو محطة مصر. دخل الوالد إلى أحد المكاتب وأمام شباك يجلس

---

(١) كان يطلق عليه شارع إبراهيم باشا في ذلك الوقت.

داخله أحد الموظفين ناوله نقوداً لا أعرف عددها فأعطاه مقابلها أوراقاً ثلاثنا لركوبنا القطار المتجه من المحطة إلى (المرج) وفي المحطة أمام قصر القبة توقف القطار ونزلنا منه إلى شارع ترعة الجبل حيث اسطبل الشيخ فوزان، فوجدنا أرض الاسطبل مفروشة بالسجاد العربي وممتلئاً بالعقيلات، فسلمنا على الشيخ فوزان الذي عرفنا على شخص كان يجلس إلى جواره قائلاً: الشيخ عبد الله ابراهيم الفضل من الجماعة ــ أي من أهل القصيم ــ وقد جاء ليتسلم أعمال الوكالة العربية السعودية في القاهرة بعد احالتي إلى (التقاعد)، وسلمنا على الحاضرين: عبد الله العيسي ومحمد العيسي ــ عبد الله أبا الخيل ــ عبد العزيز السابق، وجمع كبير لم أعرف أسماءهم لكنهم بالقطع من العقيلات الذين يهتمون بتربية الخيول.

تناولنا طعام الغداء ثم ركبنا القطار عائدين إلى القاهرة بعد صلاة العصر بالمسجد الذي بجوار الفندق. قال الوالد سوف أذهب إلى الفندق للنوم، أخذني إبراهيم الجربوع ــ رحمه الله ــ من يدي قائلاً تعال معي، أبوك (شايب) أي رجل كبير ويحب النوم أما نحن فقد نذهب إلى (الفرجة) على مصر.

سرنا من المسجد إلى ميدان الخازندار، وسور الحديقة الكبيرة (الأزبكية) فدخلنا من بابها الشمالي وتمشينا فيها(وعلى إحدى المصاطب)جلسنا قليلاً، فحضر أحد بائعي (اللبن) يحمله في أباريق بيض وصب لنا أكواباً سأله إبراهيم الجربوع: بكم (الكوز) يعني الكوب، قال ثلاثة أكواب بقرش (صاغ) شربنا كوبين ونقده القرش، نهضنا من جلوسنا وخرجنا من الباب

الجنوبي للحديقة أمام مبنى كبير، توقفنا وكان مكتوباً عليه (دار الاوبرا المصرية).

وهو مبنى يرتفع إلى ثلاثة طوابق وأمامه حديقة فيها تمثال لرجل يركب حصاناً ويشير بأصبعه قال لي إبراهيم الجربوع: هذا تمثال ابراهيم باشا، فوقفت أمام التمثال أرقبه وهو يشير بأصبعه أمامه شارع يسمى شارع الصيارفة وأظنه شارع (عبد الخالق ثروت) وشارع آخر مواز له وفيه الكثير من الصاغة وبائعي الذهب وهو شارع (عدلي) ثم شارع آخر سرنا إليه وبجواره مبنى كبير عرفت أنه فندق كبير هو (الكونتنتال) لايسكنه إلا أكابر الناس، هكذا قال لي إبراهيم، ثم سرنا بمحاذاة سور الازبكية إلى شارع طويل فيه متاجر كثيرة عرفت أنه شارع فؤاد.

ثم عدنا من حيث أتينا وحول سور الأزبكية توقفنا أمام مبنى في نهاية السور إلى الجنوب الشرقي ويطل على العتبة الخضراء وجدنا لافتات كبيرة تشير إلى حفل أقامته الآنسة أم كلثوم وغنت فيه: ياليلة العيد ــ أفديه ان حفظ الهوى، واعلانات أخرى لمبنى آخر عرفت أنه البريد والإطفاء. عدنا إلى الفندق ووجدنا الوالد قد قام من نومه وخرجنا سوياً إلى بيت الشيخ فوزان السابق في شارع محمد سعيد، فقد أقام دعوة عشاء للشيخ عبد الله إبراهيم الفضل والموظفين السعوديين القادمين لاستلام العمل وعرفنا أنهم قد اشتروا بيتاً آخر ليكون مقراً للقنصلية بدلاً من بيت الشيخ فوزان الذي أمر جلالة الملك عبد العزيز بأن يكون ملكاً للشيخ فوزان والمقر الجديد في الجيزة.

عدنا إلى الفندق بعد حفل العشاء وبتنا ليلتنا، وفي الصباح خرجنا إلى السوق فقد انتهت الاجازة وفتحت الحوانيت فذهبنا

إلى شارع الصاغة حيث قابلنا أحد الصرافين و يدعى (كيراكوسيان) وهو أرمنلي و يعمل وكيلاً لعلاوي الكباريتي في عمان، وسلمه الوالد النقود التي كانت معه وأخذ منه ايصالاً بالتحويل وطلب إليه أن يبلغ علاوي الكباريتي بأن نصف هذا المبلغ يخص عبد العزيز الراشد يحولها له في بغداد وحول إبراهيم الجربوع نقوده أيضاً إلى علاوي الكباريتي.

وذهبنا إلى إحدى المكتبات وتقع في حواري حالياً مابين شارع قصر النيل وشارع عبد الخالق ثروت و يسمى شارع (الكتبة) وأعطيناه بعض المعلومات وكتب خطاباً باللغة الانجليزية يطلب فيزا دخول فلسطين ذهبنا به إلى حيث السفارة البريطانية ووعدنا بعد يومين للحضور إلى السفارة بعد الحصول على جواز سفر من القنصلية السعودية.

وفي صباح اليوم التالى ذهبنا إلى القنصلية السعودية بالجيزة حيث ركبنا (الترامواي) رقم (١٥) وقفنا في ميدان الجيزة ومشينا إلى حيث حديقة الحيوان ثم مبنى القنصلية السعودية وهو المبنى الذي كانت تستخدمه القنصلية حتى عام ١٣٩٥هـ عندما هدمت و بقيت أرضاً حتى هذه اللحظة، دخلنا المبنى وإلى المفوض في إصدار الجوازات. وتقدمنا بطلب وأصدر جواز سفر للوالد وأنا برفقته وجواز لإبراهيم الجربوع، وأخذنا الجوازات وذهبنا إلى القنصلية البريطانية في اليوم التالي، و بعد أن اطلعوا على جوازات السفر أعطونا ورقة مرور للذهاب إلى فلسطين وفيزا على جواز السفر.

و بعد انتهاء الاجراءات الرسمية عدنا إلى الفندق وفي المساء ذهبنا إلى سوق الموسكي وفي أحد الأزقة الضيقة منه دخلنا أحد

الحوانيت ومكتوب على المحل (بياع العطور والبخور) محمد المغربي، فسلم الوالد على الرجل وطلب منه بعض العطور والبخور والهيل وتركناه إلى الفندق.

إبراهيم الجربوع كان قد آثر البقاء في مصر لانتهاء بعض أعماله وعاد إلى بلبيس وبقيت أنا والوالد، وكان رحمه الله قليل الكلام وإبراهيم الجربوع بالرغم من أنه يكبر الوالد بأعوام، إلا أنه مرح وطويل البال ويشبع هوايتي في حب الاستطلاع.

وفي يوم الاثنين ١٤ ذى الحجة ١٣٦٦هـ كنا على موعد مع عبد العزيز الحماد في مقهى بالقرب من فندق اسكندرية الذي قرر أن يرافقنا في رحلة العودة إلى فلسطين والعراق، جلسنا في مقهى بانتظاره وبينما نحن جلوس لفت نظر الوالد شخص يرتدي الملابس العربية، فناداه باسم (عبد الله) حضر إلينا وسلم علي وعلى الوالد الذي عرفني به الشاعر (عبد الله اللويحان) وكان يعرفه صديقاً عندما كان يسكن في مدينة بريدة ويشتغل في تجارة المواشي في سوق بريدة.

سأله الوالد عن أخباره وعن سبب حضوره إلى مصر، وماهي أخبار الشعر معه في هذا البلد قال لقد حضرت إلى مصر بقصد العلاج، وهناك بعض الأمراء وأنا أقيم معهم، وقال شعراً :

ان مت في شارع فؤاد ادفنوني
ياطأ على قبري بنات مزاين

ماعا اكذب عقب ماشافت عيوني
بنات من نسل البوش والسلاطين(١)

---

(١) البوش جمع باشا وكانت هذه المسميات منتشرة في تلك الأيام.

قال هذه القصيدة لم تنته بعد والله أعلم أني مثل (بصري) يوم (خلوه) تركوه يحج وعندما دخل إلى مكة وكان شاعراً مشهوراً في الغزل وأراد له أولاده أن يحج وأن يتعبد في أواخر أيامه، لكن الشعر تسلط عليه وهو يرى بنتاً جميلة تطوف حول الحرم فقال:

التايه إلى جاب بصري يقنه
جدد جروح العود والعود قاضي

إلى آخر القصيدة التي لم أحفظها. وقد ضحكنا من حديثه الشيق، وتركنا مودعاً حيث هو على موعد، وفي هذه الأثناء حضر عبد العزيز الحماد وجلسنا معه بعض الوقت واتفق مع الوالد على أن يكون سفرنا إلى فلسطين يوم الخميس الموافق ١٧ ذو الحجة ١٣٦٦هـ وغداً نتقابل في بيت الشيخ فوزان السابق في شارع محمد سعيد لوداعه.

وفي الموعد المحدد تركنا الفندق إلى بيت فوزان حيث ركبنا (ترامواي) رقم ١٥ يسير من ميدان الخازندار ــ ميدان العتبة ــ شارع عبد العزيز ــ شارع باب اللوق ــ ميدان الاسماعيلية الذي هو الآن ميدان التحرير ــ شارع القصر العيني حيث توقفنا في محطة له أمام شارع محمد سعيد وذهبنا إلى البيت ووجدنا عبد العزيز الحماد وعثمان الجلاجل الذي ذكرنا أن الشيخ فوزان السابق ذهب مع عبد الله الفضل إلى الاسكندرية لأمر هام حمله سلام الوالد للشيخ وتركنا البيت إلى الفندق وبتنا ليلتنا، وفي الصباح الباكر اتجهنا إلى محطة مصر حيث استقلينا القطار المتجه إلى القنطرة الشرقية مروراً بالاسماعيلية ــ القنطرة الغربية التي وصلنا إليها قبل صلاة العصر وركبنا المعدية إلى القنطرة الشرقية.

وفي مبنى الجمارك قابلنا عبد العزيز الرميح وبعد الانتهاء من الاجراءات الجمركية ذهبنا إلى بيت سليمان الرميح للاقامة بقية اليوم حتى قيام قطار فلسطين، الذي يتحرك من القنطرة الشرقية في منتصف الليل.

تحرك بنا القطار في الموعد المحدد وكان الوالد يحمل نقوداً مصرية تزيد على مائتي جنيه يحملها في جيبه وكان خروج العملة في ذلك الوقت ممنوعاً، وكان مسئول الجوازات يومئذ أحد أبناء العقيلات وهو مطيع السلمان النفيمشي من أهل بريدة، عمل بالحكومة البريطانية هو وأخوه أيام الانتداب البريطاني على فلسطين وقد قابلناه في بيت الرميح في القنطرة وعلمنا منه أنه سوف يكون المسئول في القطار.

وكانت الاجراءات المتبعة على هذا القطار بعد أن يتحرك من محطة القنطرة يتسلمه مندوب من الحكومة المصرية ليقوم بالتفتيش في حقائب المسافرين عن العملة المصرية ويصادرها من الركاب، وكان مطيع قد سلم على الوالد في بيت سلمان الرميح في القنطرة وقبل أن يقوم المفتش المصري جاء إلينا مطيع يسأل إن كان معنا نقود فأبلغه الوالد بوجود مائتي جنيه مصري معه أخذها منه وخمسين جنيها مع عبد العزيز الحماد، وجاء المفتش وبحث في الامتعة ولم يجد شيئاً، وفي محطة الدويدار توقف القطار ونزل وصعد إلى القطار مفتش يتبع حكومة فلسطين، عاد إلينا مطيع وسلمنا النقود وحرص على أن يولينا خدمة خاصة من زملائه في القطار، سار القطار يتهادى في صحراء سينا ومع طلوع الفجر وصل إلى محطة رفح، وبقي فيها نصف ساعة ثم تحرك، ودخلنا خان يونس ثم دير البلح، وأخيراً وصلنا إلى غزة.

وفي محطة غزة فوجئنا بما لم يكن في الحسبان، لقد قررت الحكومة في فلسطين أن تذهب العربات القادمة من مصر بكامل حمولتها إلى حيفا في حصار تام حتى أدخلت العربات في قلب الكورنتينا، وتم حجزنا لمدة ثلاثة أيام خرجنا بعد ذلك إلى مدينة حيفا وفي أحد الفنادق نزلنا وأقمنا ليلتنا وفي الصباح الباكر ركبنا إحدى الحافلات إلى نابلس ومنها ركبنا التاكسي إلى الأردن، ونزلنا من الفارعة ــ أريحا ــ جسر اللنبي ــ الشونة ــ السلط ــ صويلح ــ عمان.

السفر إلى العراق

وصلنا إلى عمان يوم الأربعاء ٢٠ ذو الحجة ١٣٦٦هـ/الموافق ٥ نوفمبر ١٩٤٧م.

بقينا في عمان ثلاثة أيام أخذ الوالد يقلب أموره ويحاسب نفسه على تجارته طوال عامين أو تزيد وعاد بذاكرته إلى كلام العراف المغربي ليجد أننا قد خسرنا في بضاعتنا مايزيد على ألف ومائتي جنيه وأن معه من رأس المال حوالي ألف وخمسمائة جنيه أو دينار عراقي من رأس المال الذي يصل إلى قرابة ثلاثة آلاف دينار.

وكان قراره المفاجىء السفر إلى العراق ليخرج في بضاعة من الاقمشة والمواد الغذائية التي ربما تعوض بعض الخسارة، وكان مرض الكوليرا قد بدأ ينتشر في البلاد المجاورة ولم نكن على حيطة من أمرنا فنأخذ شهادات من الكورنتينا في مصر، أو في حيفا، وتجنبنا عناء ماتحملناه في طريقنا من عمان حتى وصولنا إلى بغداد.

ركبنا إحدى السيارات من عمان وكنا : عبد العزيز الحماد، الوالد، وأنا معهما، ومررنا بنقاط الحدود الأردنية العراقية ــ جفور ــ جفيفا ــ الحبانية ــ الرطبة.

وفي الرطبة صمم أحد الضباط العراقيين على احتجازنا وبعض الرجال من قبيلة عنزة كانوا يركبون معنا في السيارة

الكبيرة التي أقلتنا من عمان، وبقينا في الرطبة تحت الإشراف الطبي لمدة ثلاثة أيام بالرغم من أن الوالد أفهم الضابط بأننا سبق أن احتجزنا في حيفا ولولا تدخل المرحوم الشيخ عبد العزيز الصغير، وكان مسئولاً في السفارة السعودية في بغداد لعدنا من حيث أتينا، وفي اليوم الرابع سمح لنا بمواصلة السفر إلى بغداد.

وفي أحد الفنادق بصوب الكرخ توقفت بنا السيارة ونزلنا إلى الفندق وكان يسكنه آنذاك صالح العبد الله الصعب، سليمان البراهيم الخطاف ــ صالح العبد الرحمن الحصان ــ محمد البراهيم الجربوع ــ أحمد بن عبد الله الأحمد ــ سليمان الرميان، كانوا يشترون بضائع من الأقمشة والدلال و يسوقونها في أسواق القصيم.

قمنا بجولة في أسواق بغداد وتذوقنا أصناف الأكلات العراقية، وبدأت أخرج مع محمد البراهيم الجربوع إلى أسواق بغداد التجارية والتفرج على معاملها ثم نعود إلى الفندق بعد أن اجتمع الوالد إلى الموجودين، فعرف منهم على نوع البضائع التي سيحملونها معهم وقرروا التنسيق فيما يحملونه من البضائع، فاشترى سليمان الخطاب خمسة حمول من النحاس (صفائح) النحاس واشترى الوالد بعض أنواع من الأقمشة الشتوية وحمولة أربعة جمال وحمل جملاً من الدلال البغدادية.

وتقرر أن يكون رفيق الرحلة سليمان الخطاف ــ الوالد ــ وأنا معهما.

واتفق مع التجار على تحميل البضائع بإحدى السيارات إلى النجف لتسلم إلى (عطاء) وكيل العقيلات هناك.

بغداد

وصلنا إلى بغداد يوم الاثنين ٢٦ ذو الحجة ١٣٦٦هـ وفي صوب الكرخ اتجهنا إلى أحد الفنادق.

لقد أخذت بغداد حظها من المؤرخين بفضل مانشر عنها من المؤلفات الكثيرة سواء منها القديم أو الحديث.

لكن هناك جانباً من تاريخ بغداد لم يتطرق إليه الباحثون، وهو أنه قد سكن العراق فئة لم تأخذ حظها من البحث والدراسة، وكان لها تأثير كبير على تاريخ بغداد، هذه الفئة هي (العقيلات). وسأحاول في الأسطر القليلة الآتية أن أورد نبذة عن تاريخ هذه الفئة.

العقيلات(١) : كان العراق أكثر البلدان المجاورة للجزيرة العربية وجوداً للعقيلات وهي الفئة التي هاجرت من بلدان نجد خلال القرن العاشر الهجري عندما احتلت الدولة العثمانية العراق سنة ٩٤٠هـ/١٥٣٤م، والحجاز ٩٢٦هـ/١٥٢٠م فهاجر الكثير من بلدان نجد طلباً للرزق وكونوا فرقاً داخل الجيوش العثمانية في الزبير والبصرة وبغداد: أدلاء على قوافل التجارة، ومتعهدين لقوافل الحجاج. ولم يقتصر دورهم على ذلك فقط، وإنما كان لهم

(١) كتاب العقيلات للمؤلف، ص ١٧.

دور رئيسي في اخماد الفتن وشاركوا الولاة العثمانيين في الوقوف معهم ضد الغزاة الطامعين في البلاد(١).

ففي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين أثناء حكم المماليك ساد جو من الصراعات والفتن خاصة أثناء ولاية عبد الله باشا على العراق عام ١١٨٨هـ/١٧٧٤م وضعف هذا الوالي الذي لم يستطع أن يحد من أطماع الفرس، فقد استطاع فريق منهم أن يبسط نفوذه على هذا الوالي وزين له حب الشهوات وجمع المال فانغمس في الملذات تاركاً للفرس السيطرة على مقدرات البلاد فاغتنموها فرصة واحتلوا البصرة.

فأوعزت الدولة العثمانية إلى حسن باشا والي كركوك بالهجوم على الفرس في المناطق المتاخمة لحدود منطقته في محاولة لاشغالهم والسيطرة على الموقف حتى تأتي النجدات لانهاء احتلال البصرة ولطرد الفرس من بغداد، ولكن حسن باشا وجد نفسه يحارب في معركة خاسرة، فالفرس يحاربونه من الداخل والخارج فكتب للدولة يخبرها بما حدث وينتظر منها ارسال الامدادات، فأرسل السلطان عبد الحميد الأول سليم باشا عام ١١٩١هـ/١٧٧٧م إلى بغداد لمساعدة الوالي عبد الله باشا على استعادة البصرة، لكن الفرس استطاعوا أن يبسطوا نفوذهم عليه هو الآخر، فانغمس في الملذات وبذلك انصرف عن الهدف الذي جاء من أجله.

---

(١) ويقصد بهم الدولة الصفوية بإيران والتي كانت دوماً تطمع في احتلال العراق.

وعمت الفوضى بغداد وقتل الوالي عبد الله باشا وكثر القتل والسلب والنهب ووقفت جيوش حسن باشا خارج بغداد تحارب في جبهتين: الفرس من الخارج، وسليم باشا والموالين له من الداخل، وكانت هناك فرقتان من الجيوش العربية المرابطة حول بغداد هي (فرقة عقيل) أهل نجد وفرقة آل عبيد وقفت على الحياد ولم تدخل في هذه الصراعات.

واجتمع أهل بغداد ومعهم فرقة عقيل أهل نجد ومحمد بن شاوى زعيم آل عبيد يتدبرون أمرهم فكتبوا إلى الوالي حسن باشا في كركوك يطلبون إليه الحضور بنفسه لايجاد حل لهذه الصراعات، وفوض أهل بغداد فرقة عقيل بالوقوف بين المتحاربين وفرضوا هدنة لمدة شهر حتى يحضر الوالي حسن باشا من كركوك، ويأتي فرمان من الدولة بتعيين والٍ جديد لبغداد. وقد استطاعت فرقة عقيل أن تسيطر على الموقف وفرض الهدنة على المتحاربين.

وقد كان للعقيلات مواقف أخرى من الصراعات الداخلية خلال عام ١٢٠١هـ/١٧٨٦م حينما اشتد الصراع بين الولاة، كان العقيلات يصدون الغزاة عن بغداد، وحفظوا الجانب الغربي من بغداد، وعندما سيطر الوالي حسن باشا على الموقف، فشكرهم وكافأ أكابرهم على غيرتهم، وحميتهم الوطنية.

وفي ذلك العهد(١) ازداد رخاء المدينة، وتضاعف عدد السكان وبدأ الرحالة الأوربيون يزورون بغداد ويتحدثون عنها بوصفها ملتقى للقوافل ومركزاً كبيراً للتجارة مع الجزيرة العربية

(١) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٧ ص ٤٢٠ ـــ ٤٣١.

وبلاد فارس وتركيا، وكانت طبقة الموظفين من الأتراك والمماليك أما التجار فكانوا من العرب.

تلك ملاحظة أردت أن أضيفها خاصة وأنني في هذه الرحلة أتعرض إلى رحلة من رحلات العقيلات.

المخاطر

كنا في فندق صوب الكرخ ببغداد في جلسة سمر يتحدث العقيلات فيها عن أسفارهم والمخاطر التي تعرضوا لها عندما سكت صالح العبد الله الصعب، وهو أحد الموجودين، قليلا وقال: لقد كنت في الفرقة أنا والمرحوم صالح العبد الله البطين، ومعنا خالد وشاري الهدلق ومحمد العبد الله المحيميد، نشتري بضاعة بقصد السفر بها إلى القصيم في شتاء عام ١٣٦٦هـ.

نزلنا إلى أسواق بغداد واشترينا البضائع، اشتريت بضائع من الأقمشة الشتوية وكذلك خالد وشاري الهدلق أما صالح البطين فقد اشترى بضاعته من النحاس والدلال وبعض مواد الصناعة مثل القصدير والنشادر وشحناها على السيارات من بغداد إلى النجف ومن هناك اشترينا الابل وأخرجناها مع الخويا إلى الدويد في السعودية.

وبعد أن انتهينا من النجف ركبنا مع البضائع في السيارات، وعند وصولنا إلى الدويد وردت ابل خالد وشاري فحملوا بضائعهم وتركونا على المورد وبقيت أنا وصالح لمدة يومين حتى حضرت ابلنا وتجهزنا للسفر تاركين الدويد إلى مورد الحيانية وقد قطعنا المسافة بأربعة أيام حيث بضاعة صالح البطين من النوع الثقيل وتستحيل مع ثقلها السفر بالليل.

وعلى مورد الحبانية وجدت نفسي في موقف حرج، بضاعتي من الأقمشة الشتوية ونحن في شهر محرم وسفرنا بهذه الطريقة

البطيئة قد تستغرق أياما كثيرة حتى نصل إلى القصيم، وخشيت أن يذهب موسم الشتاء وتبور بضاعتي، وعرضت الأمر على صالح ووافق أن أتركه هو وخويه على مورد الحبانية وأذهب أنا وخوى نواصل الليل بالنهار حتى نصل سريعاً ووافق صالح على ذلك.

ودعناهم على مورد الحبانية : صالح البطين وخويه من قبيلة حرب، ووصلت إلى القصيم بعد أسبوع من مورد الحبانية وأدخلت بضاعتي إلى السوق ووافقت سوقاً طيبا وتركت بريدة متوجهاً إلى العيون (عيون الجواو) وأقمت عند أهلي عشرة أيام وفوجئت بمن يسأل عني: عبد العزيز البطين أخو صالح يسألني عنه فقد تأخر عن الحضور، وانشغل أهله يبحثون عنه في كل مكان ومضى شهر ولم يصل وتوترت عنه الأخبار.

يقول صالح الصعب : علمت من تسلسل الأحداث أن صالح البطين وخويه رحمهما الله تركا مورد الحبانية بعد سفرنا بيوم، وفي أحد كثبان الرمال توقفا للمضحى وأثناء إعدادهما للطعام حضر إليهما أحد المسافرين وأكرماه، فسألهما عن وجهتهما، قال أنا ذاهب إلى القصيم ففرح الاثنان بهذا المرافق فهم بأشد الحاجة إلى يد تساعدهما على تحميل صفائح النحاس والدلال الثقيلة.

كان مع صالح من الابل عشرة : خمسة محملة بالنحاس، وثلاثة محملة بالدلال والقصدير والنشادر واثنان للركوب، وحمل الشاية كان صالح يحمل بندقية (أم خمس) والمسافر الذي يرافقهما يحمل بندقية ويدعي أنه (من الخويا) أي من رجال الحكومة في مهمة رسمية.

وبعد أن قطعوا مسافة كبيرة من النفود، وقبل الحجرة توقفوا للمعشى وباتوا ليلتهم وفي الصباح ذهب الخوى لتجميع الابل من المراعي وقام صالح بجمع الدلال، ومواد الأكل استعداداً للتحميل وكانت البندقية التي يحملها قد تركها على أحد الأشدة، قام المرافق باطلاق الرصاص على صالح فأصابه في رجليه، وزحف باتجاه البندقية لكنه عاجله برصاصة أخرى سقط على أثرها صريعاً بين الحياة والموت، سمع الخوى على البعد طلقات الرصاص فركب أحد الجمال باتجاه مكانهم وعلى البعد شاهد صالح طريحا على الأرض، فحاول الهرب لكن القاتل قام باطلاق الرصاص على الجمل الذي يركبه فوقع الجمل على الأرض ووقع الخوى من ظهره وقام القاتل باطلاق الرصاص عليه فمات في الحال.

ترك القاتل الابل الباقية تهيم في مراعيها حتى لايتعرف أحد على (وسم) البطين على الابل، وغاب القاتل عن مكان الحادث وأحضر معه أعوانه ومعهم جمال أخرى حملوا عليها البضائع وأخفوا معالم الجريمة بدفن الاثنين في الرمال.

يقول صالح الصعب ـــ الذي روى هذه القصة ـــ كان مشاري وخالد الهدلق قد وصلا إلى بريدة قبل وصول صالح الصعب بحوالي عشرة أيام، وقد أخبر عبد الله البطين وأخاه عبد العزيز بأنهم قد تركوا صالح في الدويد وبعد أن وصلت أنا إلى بريدة بعدهم بسبعة عشر يوماً، كان صالح لم يحضر فاتصلوا بمشاري الهدلق يسألونه، وبوصولي تأكد لدى الجميع أن هناك حادثاً ما وقع، وبدأوا يبحثون عنه اتصلوا بامارة القصيم، التي اتصلت بالمراكز التابعة لها وعلى إمارة حائل ومراكزها دون جدوى.

كان مشاري الهدلق هو الوحيد الذي يعرف بضاعة صالح لأنهم كانوا في بغداد يدخلون الأسواق فتبرع مشاري بالسفر إلى حائل فهي أقرب البلدان في طريق صالح البطين، ووصل مشاري إلى مدينة حائل وعند أحد التجار الذين يعرفهم أقام في بيته وكان يحضر إلى السوق يومياً، كانت المفاجأة فقد وجد بعض الدلال لدى أحد التجار يعرضها للبيع، فسأل الدلال لمن هذه البضاعة فقال اشتريتها من تاجر اسمه (معجب) من كبار تجار حائل وهو من الأشخاص الذين يتعاملون مع البدو، وكثيراً (ماينوخ) عليه الكثير من القبائل، بمعنى أن بيته مفتوح للضيفان من البدو. يقيمون في بيته ويشترون ويبيعون بضائعهم عند هذا التاجر.

قابل مشاري التاجر معجب وسأله عن صاحب هذه البضاعة قال إنهم تجار من البدو أحضروها من العراق وهم موجودون عندي في البيت، فعدد عليه أنواع البضائع التي أحضروها، وتعرف مشاري على البضاعة وأخبر التاجر معجب بقصة صالح البطين وطلب إليه أن يماطل في تسديد قيم البضائع حتى يتمكن من ابلاغ أمير منطقة حائل بالقصة، وعند ذلك تم إلقاء القبض على الجناة الذين اعترفوا بأنهم كانوا أربعة يتابعون مسيرة صالح البطين وصالح الصعب منذ أن تركا مورد الدويد وكان القصاص.

وبعد، فهذه قصة أحد شباب العقيلات كما رواها أكثر من شخص منهم بعد أن سمعتها من صالح الصعب ونحن في فندق صوب الكرخ في بغداد.

غادرنا بغداد صباح يوم الأربعاء ٥ محرم ١٣٦٧هـ، والوالد وسليمان الخطاف، في إحدى السيارات المتجهة إلى الرقة، وتوقفنا فيها وقصدنا أحد الفنادق طلباً للراحة.

والرقة مدينة كبيرة تشتهر باللبن الزبادي والعيش المقمر الذي تناولناه على مائدة الغذاء، وأقمنا ليلتنا فيها، يقول عنها ياقوت(١): «مدينة مشهورة على الفرات من الجانب الشرقي، و يقال لها الرقة البيضاء، أرسل سعد بن أبي وقاص والي الكوفة فى سنة ١٧هـ/٦٣٨م جيشاً عليه غياض بن غنم فقدم إلى الجزيرة فبلغ أهلها خبره فبعثوا إلى عياض يطلبون منه الصلح فقبله. قال سهل بن عدى:

وصادمنا الفرات غداة سرنا
إلى أهل الجزيرة بالعوالي

أخذنا الرقة البيضاء لما
رأينا الشهر لوح بالهلال

وصار الخرج ضاحية الينا
باكناف الجزيرة عن تعالى

وفي الصباح الباكر قصدنا موقف السيارات المسافرة إلى الحلة، ثم عبرنا نهر الفرات وقد توقفنا في الحلة وهى مدينة كبيرة وجلسنا في إحدى المقاهي لتناول الشاي وطلب الراحة ثم إن السيارة التي أقلتنا من الرقة لا تصل لأكثر من الحلة، ثم نركب سيارة أخرى إلى النجف.

---

(١) معجم البلدان لياقوت، جـ ٣ ص ٥٨ ــ ١٦٠.

والحلة يقول عنها ياقوت(١) : مدينة مشهورة باسم (حلة بني مزيد) بين الكوفة وبغداد، وكانت تسمى الجامعين وكان أول من عمرها ونزلها سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي، ثم انتقل في محرم ٤٩٥هـ/١١٠١م إلى موضع آخر بنى فيه المساكن الجليلة والدور الفاخرة، وقد قصدها التجار فصارت من أفخر بلاد العراق وأحسنها.

بعد صلاة الظهر ركبنا إحدى السيارات إلى النجف، وكان الجو صيفاً، واتجهنا بعد أن تركنا الحلة إلى الغرب، وتوقفنا في أحد المهاد للراحة، ثم واصلنا المسير وكنت أشاهد مع وهج الشمس المشهد الحسيني. القباب المطعمة بالذهب ينعكس مع ضوء الشمس، وقد هالني هذا المنظر، وكلما اقتربنا من النجف بدأت تلوح القباب المزركشة باللون الأخضر والمطلية بالذهب.

وصلنا إلى النجف قبل غروب الشمس، وقصدنا إلى (خان عطاء) فهو المكان الذي يؤمه العقيلات أو القادمون من الجزيرة العربية بقصد التزود بالمواد الغذائية من العراق.

وهو مبنى يضم غرفاً كثيرة مقابل ايجار زهيد للاقامة فيه حيث يتولى بالوكالة عن القادمين لشراء المواد الغذائية والبضائع وتجهيزها. ذهبنا بالسيارة إلى الخان وانطلق أحد خويا عطاء ليبلغه عن قدومنا، حضر الرجل مرحباً وعارضا خدماته، فأبلغه الوالد وسليمان الخطاف أنهما اشتريا بعض البضائع من بغداد وقد تصل غداً أو بعد غد على إحدى السيارات.

---

(١) معجم البلدان لياقوت، جـ ٤ ص ٢٩٤.

طلبوا إليه أيضاً تجهيز ثلاثة أحمال من الأرز العراقي (التمن) (والعنبر) وفي الصباح خرجنا إلى سوق الابل جنوبي النجف واشترينا عشرة من الابل اثنين لركوبنا، وثمانية لحمل البضائع، واشترى سليمان الخطاف ستة من الجمال وأصبح مجموع مامعنا جميعاً من الابل ستة عشر رأساً أدخلناها إلى (خان عطاء) واشترينا لها الأعلاف، وفي صباح اليوم التالي أوقدنا النار ووضعنا علامتنا على الابل ووضع سليمان علامته أيضاً.

كلفني الوالد بمهمة احضار الأعلاف للابل يومياً فكنت أخرج في الصباح إلى حيث سوق الأعلاف وأشتري حمل بعير من الأعلاف وقيمته تتراوح مابين ثلاثة إلى أربعة دنانير عراقية فكنت أشتري الأعلاف وأدخلها إلى الخان ثم أخرج في نزهة إلى أسواق النجف أتعرف على معالم المدينة، كنت أرى الزينات تنصب حول المشهد الحسيني والوفود تصل إليه من جميع أنحاء العراق فسألت الوالد قال انهم يستعدون (لعاشوراء).

في مساء يوم السبت ٨ محرم ١٣٦٧هـ خرجت مع الوالد وسليمان الخطاف وصلينا في صلاة المغرب في المسجد الكبير الذي يضم قبر علي بن أبي طالب ــ رضى الله عنه ــ القبة الكبيرة مفروشة بالسجاد وبها قناديل من الذهب والفضة وفي وسط العتبة المقام منقوش بصفائح الذهب وفيها ثلاثة قبور سمعت الوالد يقول: إن أهل النجف يزعمون أن واحداً من هذه القبور هو قبر آدم والثاني قبر نوح عليهما السلام أما الثالث فهو قبر علي بن أبي طالب ــ رضى الله عنه.

أما الأعتاب حول القبور فهى من الذهب والفضة وعليها ستائر من الحرير الملون وتمت الزيارة والصلاة وقد سمعت

ألفاظاً في الدعاء استغربتها مثل قول أحد الجالسين، حولنا: لا إله إلا الله ــ علي ولي الله.

عدنا بعد هذه الزيارة إلى الخان حيث اجتمعنا مع عطاء وبعض أصحابه من أهل النجف في ليلة سمر، تركونا منصرفين إلى شئونهم وفي الصباح الباكر سمعت مظاهرة كبيرة تسير في الشوارع، وجمع غفير من الناس يرددون كلاماً، لم أفهمه، فخرجت من باب الخان لأرى مايقوله الناس، لكن الوالد أدخلني بقوة، وحدثت مشادة صغيرة لا أذكر لها سبباً إلا أنه منعني من الخروج، وحاولت مرة أخرى، لكن الوالد أقسم بألا أخرج من الباب فأطعته على مضض، وأردت الطلوع إلى سطح الخان لكنه منعني أيضاً ولم تجد محاولاتي معه.

عرفت في صباح اليوم التالي أن هذه المظاهرة خرجت من المشهد الحسيني بمناسبة يوم عاشوراء ثم انقلبت إلى مظاهرة سياسية قتل فيها كثير من الناس، وهذا مافسر لي عدم رضاء الوالد عن خروجي، وكان الوالد يذكرني بها قبل وفاته بعامين رحمه الله.

موارد المياه

خرجنا من النجف صباح يوم الأربعاء ١٢ محرم ١٣٦٧هـ وكان معنا من الابل ستة عشر رأساً: ثلاثة منها المطايا التي ركبناها وخمسة تحمل صفائح النحاس وستة تحمل بضائع من الأقشة والأرز العراقي، وقد تم تحميل الابل أمام باب الخان وتحركت القافلة خارج مدينة النجف وسمعت الوالد يقول لسليمان الخطاف سوف نضحي في قرية العذيب وهى لا تبعد سوى نصف مرحلة وصلنا إليها قبل الظهر.

والعذيب قرية صغيرة على جنب وادٍ كثير النخيل يقول عنه ياقوت(١): ماء طيب وهي واد لبني تميم من منازل خارج الكوفة.

كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص يقول: إذا كان يوم كذا فأرتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عذيب الهجانات وعذيب القوادس، وشرق بالناس وغرب بهم وإذا خرجت منه دخلت إلى البادية.

وكنا قد أقمنا حول هذا الوادي بضع ساعات ثم ارتحلنا إلى حيث مورد واقصة(٢) التي تبعد عنه بمرحلة وهى منزل بطريق الحاج ويقال لها واقصة الحزون قال الأعشى:

---

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ٤ ص ٩٢.

(٢) نفس المصدر السابق جـ ٥ ص ٣٥٤.

الا تـفـنـى خـيـارك أو تـنـاهـى
ركـاءت قـبـل مـايبـكي الـولـيـد

رأيت الـقـوم تـارك لم أغـمـض
بـــواقـــصـــة وشـــربـــنـــا زرود

وقال الخضل بن عبيد :

الام اذا حـنـت قـلوب من الهـوى
ومـــالـــي ذنـــب ان تحـن الأبـاعـر

يـقـولـون لا تـنـظـر وقـاك بـلـيـة
بـلـى كـل ذى عـينين لابـد نـاظـر

وقـد سـرنـا باتجاه أرض يقال لها البسيطة إذا جاوزناها دخلنا الـرمـل (النفود) في منتصف الليل توقفت القافلة وأقمنا ليلتنا قبل أن نـصـل إلـى واقـصة وفي الصباح الباكر بدأنا في نقل الأحمال عـلـى ظـهـور الابـل وهى صفائح نحاس ثقيلة، ولم يكن معنا أحد يـسـاعـدنـا عـلـى الـتـحميل فقد كنت الثالث مع الوالد وسليمان الخـطـاف، يـقوم الاثنان بوضع (فردة) صفائح النحاس على ظهر الـراحـلـة فـي مـبـركـهـا وعـلـي أن أستند عليها حتى يأتيا بالثانية لـيـضـعـاها و يربطاها بالحبال مع غيرها، وكم أخفقت في حفظ تـوازنـي في العديد من المرات فإذا وضعوا فردة النحاس على ظهر الراحلة وقعت مني الفردة الأخرى وقد عانيت كثيراً، وأحاول أن أكون قو ياً، لكن النحاس أثقل من أن تتحمله قوتي، أما الأحمال الباقية فهى سهلة.

وصلنا إلى (زبالة) وهو آخر مورد في حدود العراق قرية كبيرة أقمنا فيها يوماً يقول عنها ياقوت(١) قرية صغيرة بطريق الحاج، بها أسواق وفيها حصن وجامع ويوم زبالة من أيام العرب وقال ابن الكلبي: سميت زبالة بنت مصر امرأة من العماليق نزلتها. قال بعض الأعراب:

ألا هل إلى نجد وماء بقاعها
سبيل وأرواح بها عطرات

وهل لي إلى تلك المنازل عودة
على مثل تلك الحال قبل مماتي

فأشرب من ماء الزلال وأرتوي
وأرعى مع الغزلان في الفلوات

وفي الصباح الباكر تحركنا بعد عناء شديد تحملته، وقبل الظهر كنا أمام أحد بيوت الأعراب الكبيرة، وإذا هو بيت شيخ قبيلة من شمر أكرم وفادتنا وأقمنا ليلتنا وفي الصباح الباكر نهضت مجموعة من الشباب وساعدونا على التحميل ووصف الطريق للوالد الى المورد التالي وهو (الشقوق) والمفروض أن نصل إليه بعد ثلاث مراحل.

وقد حدث مالم يكن في الحسبان بعد أن قطعنا مرحلة وبدأنا في المرحلة الثانية، هبت عاصفة اضطرتنا أن نقيم في جوانب أحد الجبال لنتقي العاصفة التي أضاعت معالم الطريق وفقدنا معها طرق الابل الواردة إلى المورد وسلكنا طريقاً عكسياً

---

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ٣.

واستمررنا على مسيرنا مرحلة أخرى بعد يومين من تركنا للشيخ الشمري وزالت العاصفة، واتضح للوالد أننا قد ضللنا الطريق في أحد المرتفعات الرملية، فحطينا الرحال، فالابل لم تشرب الماء إلا من مورد زبالة التي بعدنا عنها الآن بأربع مراحل القيض قارص.

رحت في نوم عميق، وتمنيت أن نبقى في هذا المكان فلقد تعبت من حمل الأحمال الثقيلة ولم يعد في قوة أستطيع بها تحمل هذا العبء الكبير الذي زودنا به سليمان الخطاف سامحه الله، فلقد كان الوالد يعاتبني كل صباح أوكلما وقعت فردة من الأحمال ولم أعد أهتم بنظرات الوالد ـ رحمه الله ـ إلي فأظن أنه هو الآخر يقول في قرارة نفسه مالنا ومال النحاس، لكنه لايستطيع.

هذا اليوم لم نتحرك من مكاننا مع الفجر وإنما تركت الابل ترعى وهي مقيدة وبدأ الوالد ينظر في المكبر لعله يجد علامة تدلنا على الطريق الصحيح إلى المورد، لكنه لم يجد أحداً ولا علامات من علامات الطريق فأحضرنا الابل وبدأت معركة التحميل وانتهت هذه المرة على خير، ربما لأنني استرددت ـ بسبب النوم ـ قوتي، أو أن لي رغبة في التحرك إلى حيث لاندري، قطعنا مسافة تقدر بمرحلة ولم نتوقف كالعادة (للمضحى).

وبينما الوالد يجول بنظره يميناً ويساراً رأى مجموعة من الابل على أحد الكثبان واتجهنا إليها ولم نصل إلى مكانها إلا قبيل غروب الشمس أنخنا الابل وأنزلنا الأحمال وجاء إلينا الراعي، فسألناه عن المياه قال المورد يبعد مرحلة وأنتم تأخذون طريقاً عكسياً فبدلاً من أن نسلك طريق (الورد) سلكنا طريق.

(الصدر) هكذا عرفت من كلام الراعي، فسأله الوالد أن يعطينا بعض الماء، قال اني لا أحمل سوى القليل أعطانا منه (نصف قربة) وأعطانا قليلاً من اللبن، وحتى نتعجل بالسير إلى المورد ساعدنا على التحميل وواصلنا رحلتنا.

توقفنا في منتصف الليل، ووجدت الوالد يدعوني إلى الاقتراب منه، أحسست أنه سيقول لي عتاباً عن التحميل، لكنني وجدته رقيقاً قال (ياولدي أنت تعبت) وأنا أشكو من (ملخ) في كتفي، فأحضرت بعض الدهون وجلست أمرخ له (الملخ) وهكذا هانت علي مصيبتي. وفي الصباح الباكر تحركنا، فالمورد لايبعد عنا سوى ساعة وأكثر وصلنا إليه مع المضحى، بئر يشبه المصنع وحولها بعض بيوت الأعراب عرفت أن هذا المورد يقال له الثعلبية بعد أن فرغنا من السقيا والابل لم تشرب منذ ستة أيام أضطررنا إلى الاقامة على المورد يومنا وليلتنا.

وفي الصباح الباكر تحركنا من المورد وقد غيرنا اتجاه مسيرنا فبدلاً من أن نسير إلى الغرب اتجهنا إلى الجنوب قاصدين مورد لينة.

لينة

ولينة مورد معروف وقد تقدم ذكره أما الآن فإنه من أكبر المراكز الحكومية في هذه النواحي إذ يضم إمارة ومالية وجمارك وبعض الدوائر الرسمية التي كانت موجودة في ذلك الوقت وهى تتبع لامارة حائل، وقد استغرقت المسافة إليها مرحلتين.

وصلنا إلى لينة مساء يوم الاثنين ١٨ محرم ١٣٦٧هـ قبل غروب الشمس، واتجهنا إلى دائرة الجمرك واصطحبنا أحد الحراس من الجمارك إلى بيت من بيوت المدينة، نزلنا الأحمال بداخله والابل في حوشه وأقمنا ليلتنا في هذا البيت وفي الصباح حضر إلينا مفتش من الجمرك وأخذ الأوراق التي معنا بأنواع البضائع وقدر عليها الجمارك مبلغاً، وتم دفعه وكتب معنا رسالة بأعداد وأنواع البضائع التي معنا إلى أمير القصيم فتلك إجراءات رسمية لابد منها.

أقمنا اليوم الثاني في لينة وأرسلنا برقية (تلغراف) إلى أهلنا بوصولنا إلى لينة وأننا سنقطع المسافة إلى بريدة في حوالي ثلاثة أيام، وبعد صلاة الظهر والعصر قصراً بدأنا تحميل البضائع ولكن هذه المرة كان معنا أحد الخويا قصد مرافقتنا إلى القصيم، وحمدت الله أن جاء من يساعدني ويخفف عني هذا العبء الذي حملته أكثر من خمسة عشر يوماً.

تحركت القافلة مع آذان العصر في لينة متوجهين إلى القصيم، نحث السير فلقد طال غيابنا والوالد رحمه الله كان متلهفاً

على رؤية والدته، فقد صحا من نومه ونحن بالغرب من أوثال وهو مذعور يقول لي: رأيت حلماً مزعجاً اللهم اجعله خيراً.

وصلنا إلى بريدة بعد غيبة مايزيد على ثلاثة أعوام مساء السبت ٢٢ محرم ١٣٦٧هـ عندما حطت الابل أمام بيتنا بجوار مسجد الصائغ وجيراننا المرحوم عبد الله الخليفة ـ جدى لوالدتي عبد الرحمن المرشود، محمد العويسي، سليمان الحامد وهذا البيت قد أجرناه من آل هويمل.

لقد وجدنا جدتي قد انتقلت إلى رحمة الله مساء أمس، أي قبل حضورنا بأربع وعشرين ساعة، وقد أصيب الوالد رحمه الله بنوبة اسهال شديدة كادت أن تودي بحياته وسهرنا ليلتنا وقد اجتمع الأقارب والأصدقاء، حول الوالد نحاول إسعافه بالعلاج بدلاً من تقبل التعازي في وفاة المرحومة الجدة.

كنا في مجلس المرحوم عبد الله الخليفة بعد العشاء حينما بدأ الوالد يقص على الموجودين قصة ذلك العراف المغربي الذي قابلنا بالقدس في أول عام سافرنا به في هذه الرحلة، والحلم المزعج الذي رآه في أوقال وهو يردد كذب المنجمون ولو صدقوا.

الرحلة الثانية

في يوم الخميس الثامن من شهر ربيع الثاني عام ١٣٦٧هـ/فبراير١٩٤٨م تقرر سفرنا برحلة ثانية إلى الأردن وفلسطين، كان الوالد قد اشترى رعيتين من الابل في هذه السنة التي يعرفها العقيلات (بسنة ابن سليمان) وهو الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية آنذاك كانت الحكومة السعودية، قد اشترت عدداً كبيراً من الابل ووضعتها في (حمى) مكان اسمه الصفاقات شرقي القصيم وباعت الحكومة على التجار المواشي.

كانت رحلتنا هذه المرة تتكون من الوالد ومحمد البراهيم الجربوع وأنا معهما ومعنا بعض الرعيان والملاحيق والخويا. ووصلنا إلى عمان في نهاية شهر ربيع الثاني، وكانت الأسواق كسدت ولم يعد من المستطاع السفر.

كانت أحداث فلسطين الدامية على مسمع منا ومرأى، وقد باع الوالد رعيته في عمان وبقيت معنا رعية نزلنا بها إلى الغور في شرقي الأردن للمشتى، كان شتاء قارساً وأفواج المهاجرين من عرب فلسطين تتوافد على الأردن مما اضطره إلى وضع معسكرات للفلسطينيين حول مزرعة الملك عبد الله في الغور.

ثم بدأت الجيوش العربية تصل إلى الأردن : جيش العراق كان يعسكر على مقربة من خيامنا والفدائيون يحاولون الذود عن أوطانهم وفي ليلة ساكنة وقع اعتداء من الصهيونيين على مخيم اللاجئين بالقرب منا، ضرب المدافع والصراخ من حولنا، والشعب الفلسطيني يتوافد على الأردن.

أركبني الوالد رحمه الله بإحدى السيارات المتجهة إلى عمان، ومعي كتاب للشيخ عبد الله السويل وهو يومئذ وكيل تموين المتطوعين السعوديين القادمين إلى أرض فلسطين في مدينة الجوف ركبت إحدى السيارات إلى سكاكا، وهناك ركبت مع السيارات التي تنقل المواد التموينية (الغذائية) من الرياض إلى الجوف.

وصلنا إلى الرياض بعد ثلاثة أيام مروراً بالجفر، ثم ركبت إحدى السيارات، إلى بريدة وكانت وصية الوالد ـ رحمه الله ـ لي أن أبحث عن عمل وكفى ماعانيته خلال هذه الرحلات.

وعملت في بريد بريدة بتاريخ ١٣٦٨/٩/١هـ براتب شهري قدره ٦٥ ريالاً سعودياً كنا نقبض المرتب بعد شهرين أو ثلاثة وحينما تتوفر للحكومة مايسدد المرتبات.

وبهذا انتهى عهدي بهذه الرحلات.

* * *

وبعد عزيزي القارىء الكريم، فهذه قصة (رحلتي مع العقيلات) راجياً أن يكون فيها عبرة للشباب وفائدة تضاف إلى أدب الرحلات.

أسوقها إلى هذا الجيل من الشباب الذي توفرت له أسباب الحياة الكريمة، ومع ذلك فهو متعجل متلهف على مصيره يبحث عن النجاح السريع دون عناء أو تعب.

لقد مشينا إلى الحياة على أرجلنا ثم ركبنا الجمل تارة والحصان تارة أخرى، وركبنا السيارة والطائرة أخيراً، ومن يدري فربما تكون هناك وسيلة أخرى يركبها هذا الجيل.

قائمة المراجع والمصادر

١ ــ دائرة المعارف الإسلامية (تأليف مجموعة من المستشرقين، ترجمة إبراهيم زكي خورشيد وآخرون، مطابع الشعب بالقاهرة).
٢ ــ معجم البلدان/لياقوت الحموي.
٣ ــ تحفة النظار في غرائب الأمصار.
٤ ــ مراصد الاطلاع.
٥ ــ كتاب العقيلات/للمؤلف.

تصويب لبعض الأعلام والأرقام والكلمات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦	٨	خبينة	ظبينة
١٨	٧ر٨	الفاط/الجواد	الغاط/الجواء
١٩	١٩	وانيا	دانيا
٢٧	١٦	الخيوب	الخبوب
٢٨	٧	١٣٧٨هـ	١٣٧٥هـ
٢٨	١٦	الغوطة	الفوطة
٢٨	٢٠	الصاغة	الصناعة
٢٨	٢١	العبيري	العييري
٣٠	١٤	النفيرة	التفيرة
٣١	٥	الجواد	الجواء
٣٣	٤	الكشنة	الكشتة
٣٣	٢٢	تسيارنا	يسارنا
٣٣	٢٢	الموضوع	الموضع
٣٥	٤	لغزارة	لفزارة
٣٩	٧	وأواني	أواني
٣٩	٢٤	الخمص	الحمض
٤١	٨	ضباً	ظبياً
٤١	١١	فنزلت تركته الجميلة عدوا وبقي هو في مكانه. قفزت	تركته الجميلة وبقي في مكانه. نزلت
٤٣	٨	قيد	فيد
٤٣	١٣	لم تصو	لم تطو
٤٥	٤	فرضبوا	فضربوا
٤٩	١٠	الشفيق	الشقيق
٥٠	١٧	ومضى عليه	ومنصوب عليها
٥١	١٦	ركيان	وطيان
٥٢	١٢	العائلة	القافلة
٥٤	٤	والحد	الحدو
٥٥	٥	القافلة	القبيلة
٥٨	١٢	لعويس شد	للعويسي شذ
٥٩	٦	النفرة	النقرة
٦٠	٢٣	أملهم	إبلهم
٦١	٧	الخمض/الرمثه	الحمض/الرمث
٦١	١٤	فلاضوء	فلاوضوء
٦٢	١٢	الجيمع	الجميع
٦٤	١	الرحال	الرجال
٦٤	٤	تركت	تحركت
٦٤	٧	بالسكوت	بالسكون
٦٤	٨	حيناك	جناك
٦٤	٩	غدفا	عذفا
٦٤	١٠	الحيبلي	الجبيلي
٦٤	١١	وانني تريكش ياشصيله	وانتي تريحين ياشعيله
٦٧	٢٠	الوجيه الخاص	الوجيه الخاصة
٦٩	٢١	وقعدت	وقمت
٦٩	٢٢	وحدث	وجدت
٧٣	٧	الغربية	القريبة
٧٥	٥	ماليه	المالية
٧٥	٦	لمساعدة	يساعده
٧٥	١٨	سلمان/وسلمان الصبحي	سليمان/وسليمان الصبيحي

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٧٦	١٤	معربه	مغربه	١١٨	٨	بريفه	بريقه
٧٧	٨	الباذعي	البازعي	١١٩	٢١	قواعدنا	تواعدنا
٧٨	١٢	بالموت	الموت	١٢٧	١٢	فسافر	نسافر
٨١	٣	هرجنا	خرجنا	١٤٨	١٧	والملاحين	والملاحيق
٨١	١١/١٣/	الجويه	الجوبه	١٤٩	١٠	العيد	العبيد
٨١	١٤	الجويه	الجوبه				
٨٩	١١	الأعوام	الأشوام	١٦٢	١٨	نرى	نرعى
٨٩	١٨	التازى	الزايدي	١٦٦	٤	العفية	القضية
٩٠	٧	نراكم	تراكم	١٦٦	٦	القفيصي	الففيص
٩١	٩	سلطان بن					
		عبد العزيز	عبد العزيز	١٧٠	٢٢	العريشي	العريش
٩٢	٧	الحويته	الحديثة	١٧٥	٦	المعكرشه	العكيرشه
٩٢	١٣	الخمس	الحمض	١٨٠	١٨	العبد العزيز	العبد الله
٩٣	١١	وطبان	وطيان	١٨١	١٧	الخليس	الخليسي
٩٣	٢٦	الشبلي	الشبيلي	١٨٧	٥	حتيان	خينان
٩٥	١٨	النعيرات	النصيرات	١٩٣	٨	النفيمشي	النفيمش
٩٧	١٥	عبد المحمد	عيد المحمد				
		العبد	العيد	١٩٦	٤	الصفير	الصقير
١٠٠	٤	الشيق	الضيق	١٩٦	١٧	الخطاب	الخطاف
١٠٠	١٢	صالح السعوى،	محمد السعوي	٢٠١	٦	١٣٦٦هـ	١٣٦٤هـ
١٠٠	٢١	محمد السعيد	حمد السعيد	٢٠٤	٧/٦	الحبانيه	الحيانيه
١٠١	٣	الصبحي	الصبيحي	٢٠٤	٦	فسأل الدلال	فسأل التاجر
١٠٦	٤/٣	وريقها/جدد	ورقها/حدر				
		ثغره	نقره	٢٠٧	١٩	العتبة	العقبة
١٠٨	٢٢	الأيام	الأمواه	٢٠٩	٤	الأقشة	الأقمشة
١٠٩	٢٢	أتم	تم	٢١٥	١	بالغرب	بالقرب
١١٨	٥	جبرون	جرون	٢١٥	١٦	أوقال	أثال

مطابع الفرزدق التجارية - الرياض
المعذر ٤٨٢٤٩٨٣
٤٨٢٤٨٦٥
الملز ٤٧٨٨٥١٠



صدر عن
الجمعية العربية السعودية
للثقافة والفنون

إدارة الثقافة

هاتف : ٤٧٧٩٠٥٩

ص.ب ٣٦٥٩ - الرياض





رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com